الابن يلد جديه ...

الابن يلد جديه

((عليها من كل زوج))

كتاب يقارب مغالطات شائعة

د. غفار محمد

الابن يلد جديه ...

الإهداء :

إلى كل باحث عن الحقيقة يأبى

الوقوع في فخّ مغالطات الحياة ..

الابن يلد جديه ...

محتوى الكتاب :

- مغالطة الزمن (عندما يئن عقرب الساعة)
- مغالطة الخير و الشر (الرمادي ينتصر)
- مغالطة ناقصات عقل و دين (ملكة النحل)
- مغالطة الأبناء و الآباء (الابن يلد جديه)
- مغالطة الجنس (اللهاث وراء السراب)
- مغالطة الانتماء (الجنسية كونيّ)
- مغالطة النجاح الحقيقي (السيف الألماسي)
- مغالطة المنتصر يكتب التاريخ (سنجاب الحقيقة)
- مغالطة تطور الدول (تطورك مجرد أصفار)
- مغالطة شيطنة الإنسان (داروين مخطئ !)
- مغالطة الألم و الموت (جرس الإنذار)
- مغالطة النار الإغريقية (برجك من حجارتهم)
- مغالطة لسنا وحيدين (حبة الرمل)
- مغالطة الفرقة الناجية (عليها من كل زوج)
- مغالطة الطاقة المهدورة (السماء الزائفة)
- مغالطة إكليل الورد (العطر في الجهتين)
- مغالطة حوالينا و لا علينا (الثور الأبيض)
- مغالطة الشيوع (الشجاعة تغلب الكثرة)

مغالطة الزمن

(عندما يئنّ عقرب الساعة)

= أهلاً صديقي .. اشتقت إليك .. كيف كانت عطلتك الصيفية ؟ تبدو عليك علامات السعادة و الرضا .. !!

= أهلاً بك .. بالفعل كانت عطلة مذهلة بكل ما تعنيه الكلمة من معنى .. بحر ، جبل و منتجع مزود بأفضل التجهيزات .. لم أشعر بالوقت كيف مضى .. أشك أنها كانت عطلة من ثلاثة أشهر .. و أكاد أجزم أنها لم تتجاوز الأسبوع ..

= بلى ، يقال أن اللحظات السعيدة تنقضي بسرعة ..

= و أنت كيف كانت عطلتك ؟.. يبدو عليك التعب و الإرهاق .. لقد كبرت ملامحك سنوات في هذه الأشهر المنصرمة ! عساه خيراً يا صديقي ؟

= آهٍ يا صديقي .. للأسف وعلى نقيضك مرت عليّ تلك العطلة دهراً كاملاً فقد شخصت أختي الصغيرة الوحيدة بسرطان ابيضاض الدم في أيام العطلة الأوائل ثم خضعت للعلاج الكيماوي فتساقط شعرها و خسرت الكثير من الوزن .. و هكذا قضيت العطلة متنقلاً بين الأطباء و المشافي في حالة من الفزع ، الألم و الاكتئاب .. و جلّ ما أرجوه من الله الآن أن تشفى أختي العزيزة في النهاية من هذا السرطان اللعين لتطوى آخر صفحة من صراع مرير و طويل معه تمددت فيه العطلة كتمدد السرطان و انتشاره في الجسد ..

*****

هذا الملخص الوجيز عن حوار بين تلميذين صديقين من المدرسة الثانوية ينطوي على مفهوم هام لابد أننا جميعاً اختبرناه مرات عديدة خلال حياتنا .. كيف يمضي علينا الزمن بلمح البصر عندما تنتابنا السعادة في حين يمضي أبطأ من سلحفاة ناهزت مئتي عام عندما نكتوي بنيران الألم و المعاناة .. و من أحشاء هذا الحوار تولد مغالطتنا الأولى في الكتاب ، مغالطة الزمن ، التي ينبثق عنها السؤال الجوهري التالي :

((هل الزمن مفهوم ثابت ؟ و هل الساعة مثلاً هي ذاتها عند الجميع ؟))

و الجواب كتبسيط أولي وجيز هو :

((كلا ، الزمن ليست ثابتاً بل هو مفهوم نسبي يختلف باختلاف ثلاثة عوامل هامة :

❶ الأول و هو إنساني بحت و يتمثل بالمعاناة أو السعادة

❷ الثاني هو التغيير و الأحداث

❸ الثالث و هو عامل فيزيائي يتعلق بحركة

الأجسام))

لنتطرق إلى هذه العوامل الثلاثة بالترتيب مع أمثلة جميلة توضح شرحها و تفسرها بسلاسة و يسر ..

بالنسبة للعامل الأول الإنساني (**السعادة و المعاناة**) فهو بسيط للغاية و قد لخصه الحوار السابق بين التلميذين الصديقين .. الأوقات السعيدة تمر بسرعة و الأوقات العصيبة تمر بمنتهى البطء .. و لا مثال أوضح لذلك من مثال التلميذ نفسه الذي تمضي عليه فترة الامتحانات ثقيلة يخالها لا تنتهي .. في حين تمرّ عليه فترة الإجازة كيد اللص المحترف الذي ينشل المحافظ بخفة أسرع من ومضة البرق .. فيشعر التلميذ بوضع الوقت بالميزان أن زمن الامتحانات أطول من زمن الإجازة ، رغم أن ذلك غير صحيح على فاتورة عقارب الساعة ..

كما أننا جميعا نتذكر سنوات طفولتنا كيف أنها مرت بلمح البصر ، و التفسير العلمي النفسي لذلك هو أنّ الطفل لا يعي تماما مفهوم الألم و المعاناة لقلة تطور الوعي لديه (

فالوعي هو توأم الألم) لذا قال الفيلسوف الكبير **رينيه ديكارت** في مذهبه الفلسفي العقلاني :

((**أنا أفكر إذاً أنا موجود**))

فالتفكير هو شكل من أشكال الوعي يتمخض عنه الألم و المعاناة ، و هذا بالضبط ما يفسر لماذا الأطفال المصابون بالمتلازمات الخلقية التي تؤثر على الملكات العقلية مثل **متلازمة داون** أو **متلازمة وليامز** لا يشعرون بالزمن كما أنهم لا يكبرون حتى جسدياً بسبب غياب تطور الوعي لديهم ، و هذا ما يفسر أيضاً ميل الأطفال بشكل عام للهو دوماً و ضحكاتهم الدائمة التي لا تتوقف مع سرعة تناسيهم للمواقف السلبية و الانتقال منها فورياً إلى لحظات اللهو و الضحك الإيجابية .. في حين يبدأ مفهوم الزمن بالتطاول تدريجياً معنا مع ارتقائنا لسلم النضوج العقلي و الفكري من يفاعة إلى مراهقة ثم شباب فكهولة انتهاءً بالشيخوخة حيث نتحدث عن سنواتها كلها بأنها كانت بطيئة و مفعمة بالمصاعب و المعاناة ..

وقد لخّص العالم الشهير **ألبرت أينشتاين** بعبقرية هذا العامل الأول عندما طُلب منه أن يوجز نظريته النسبية بجملة مقتضبة ، فقال :

((**الزمن بالنسبة لشخص يقفز على الجمر يمر ببطءٍ شديد ، أما بالنسبة لشخص في موعد غرامي فينقضي بلمح البصر**))

و هذا بالضبط ما حدث مع التلميذين الصديقين في عطلتهما الصيفية المتساوية زمنياً ظاهرياً و المختلفة زمنياً في باطنها

و من المثير تناول هذا العامل من مفهوم طبي نفسي أيضاً ، فمريض **الاكتئاب** يصف حياته بأنه طويلة و مؤلمة في حين نجد أن مريض **الهوس** (ارتفاع المزاج الحاد) يذكر أن الوقت يمر عليه سريعاً فلا يكاد يشعر به ..

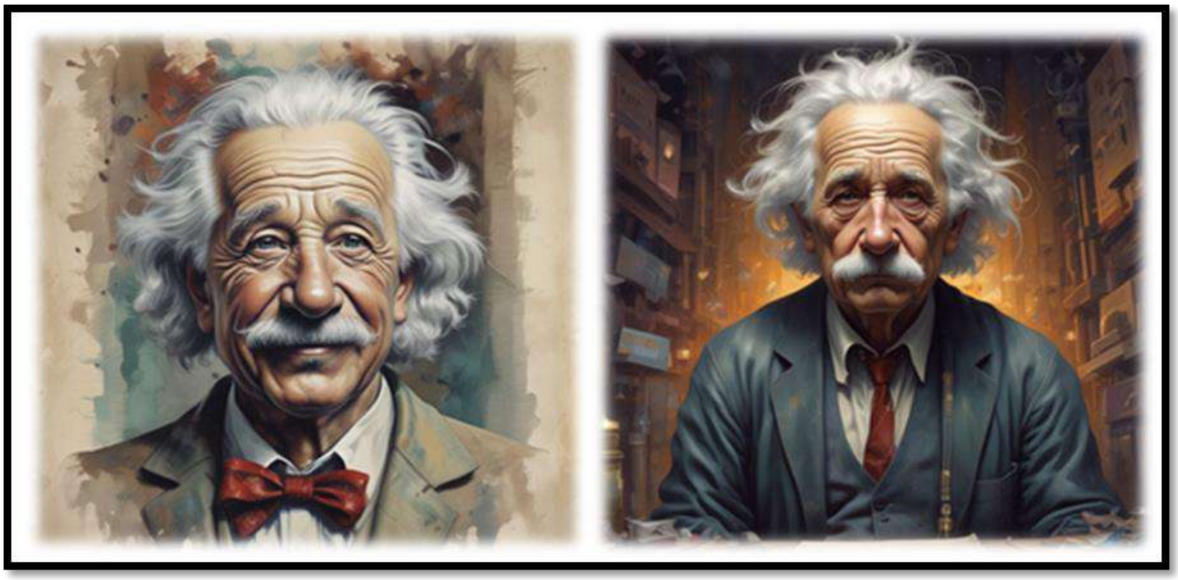

مما يؤكد علمياً دور العامل الأول و تأثير السعادة و الألم على تحديد مدة الوقت الفعلية و هذا يعود بنا إلى المثال في مطلع المغالطة بأنّ اللحظات السعيدة تمر سريعاً و العكس صحيح ..

أو كما يمكننا تبسيطه بجملة واحدة :

((**عندما يئن عقرب الساعة تثقل حركته و يحبو**

ببطء و عندا يضحك يهرول دائراً على محيط الساعة))

بالانتقال إلى العامل الثاني و هو (**التغيير و الأحداث**) فتفسيره بسيط بدوره .. عندما تركد الأحداث و تفتقر للتغيير تركد عقارب الساعة بدورها ليتوقف الزمن و يصبح بلا معنى و على النقيض كلما تسارعت الأحداث تسابقت عقارب الساعة مع بعضها كمجموعة عدائين يصبو كل منهم إلى الفوز بسباق **100** متر قافزاً فوق الحواجز برشاقة ..

و لكي نفسر هذا العامل أكثر يجدر التنويه إلى أن مفهوم الزمن صنعه الإنسان بنفسه في الأساس و منذ فجر التاريخ ليعكس الحركة من حوله لا أكثر .. فاليوم هو تعاقب نهار و ليل بسبب دوران الأرض حول نفسها و الشهر القمري يشير إلى دوران القمر حول الأرض و السنة عبارة عن دورة كاملة للأرض حول الشمس .. فإذا تخيلنا للحظة بأن الشمس ثابتة في منتصف السماء على الدوام لن يعود للزمن أي معنى أو قيمة بل سيتجمد في مكانه لتصبح الأوقات متشابهة تماماً ..

و هذا بالضبط ما كان عليه حال الكون قبل **الانفجار العظيم** .. ظلام دامس بلا وقت أو زمن يمضي ، و كل

لحظة فيه هي الأبدية برمتها ، كذلك لا يمكن اقتطاع أي فترة منه و توصيفها بطريقة ما أو نسبها إلى حدث معين .. ليبدأ عدّاد الثواني بالهرولة مع بدء الانفجار العظيم لنقول عندها أنه في هذه الفترة تكونت الأجسام دون الذرية و عند هذه اللحظة ولد الضوء و في تلك الآونة ولدت النجوم فالمجرات فالكواكب ليصبح الزمن ذا معنى مع ولادة الأحداث و التغيير ..

و هنا يطل علينا سؤال هام برأسه ليثير أدمغتنا :

((**هل فترة حياتنا الجنينية في رحم أمهاتنا – 9 أشهر غالباً - تحسب من عمرنا ؟ و لماذا لا نضيفها إلى عمرنا لحظة وفاتنا**))

و الجواب بكل بساطة : لأن الوقت الذي مضى علينا في الرحم لا معنى له بغياب أي حدث هام فيه .. و عند ولادتنا و كما ولد الكون برمته لحظة الانفجار الكبير (**في الولادة يمكننا القول الانبثاق الكبير للأغشية الأمنيوسية المحيطة بالجنين**) ولد الوقت معنا أيضاً فابتسمنا بعمر الشهرين و ضحكنا بعمر ٥ أشهر ثم جلسنا بعمر ٦ أشهر و حبونا بعمر ٩ أشهر و انطلقنا نمشي على درب الحياة بعمر السنة و هكذا .. بذلك صبغت الأحداث الجديدة الوقت بصبغتها السحرية ليصبح ذا معنى فعلياً ..

في مذكرات أحد سجناء **سجن الباستيل** قبيل **الثورة الفرنسية** الشهيرة (**1789 – 1799** م) يلخص

تجربته المريرة مع السجن في زنزانة منفردة في الأقبية تحت الأرض فيقول :

((بعد مضي أيام قليلة على حبسي فقدت الشعور بالوقت فلا نهار أو ليل أستدل من خلالهما على الساعة .. و لا أشخاص يخبرونني بالتواريخ .. تتناوب فقط فترات من النوم و اليقظة في ظلام دامس تتخللها صوت الفتحة الصغيرة أسفل الباب التي تمرر الطعام الفاسد لي .. و بعد مرور وقت لا يمكنني وصفه بالطويل أو القصير لكنني أتوقع أنه لا يتجاوز شهور قليلة على ما أعتقد و مع انتصار الثورة و سقوط سجن الباستيل تم تحريري من الأسر لأصدم بحقيقة مرعبة أن الزمن الذي مر علي في زنزانتي يناهز الخمس سنوات ..))

و هذه القصة تؤكد أنه بغياب الأحداث و الحركة يفقد الزمن معناه .. فالسجين المنطوي على نفسه في زنزانة ضيقة و

فارغة بدون أي تغيير من حوله فقد الإحساس بالوقت و توقف الزمن عنده ليصبح حسابه مجرد تخمين حدسي بدون دلالة علمية ..

و في الأديان حكاية مماثلة تتطرق إلى العامل الثاني بدورها

و هي حكاية **أهل الكهف** الذين ناموا في كهفهم لفترة من الزمن و عندما استيقظوا ظنوا أنهم لبثوا فيه يوماً أو أقل ليصدموا بحقيقة أنهم ناموا أكثر من **300** سنة .. فالنوم هو توقف الأحداث و امحاء التغيير من الخارطة الشخصية فيتوقف الزمن معه تماماً ..

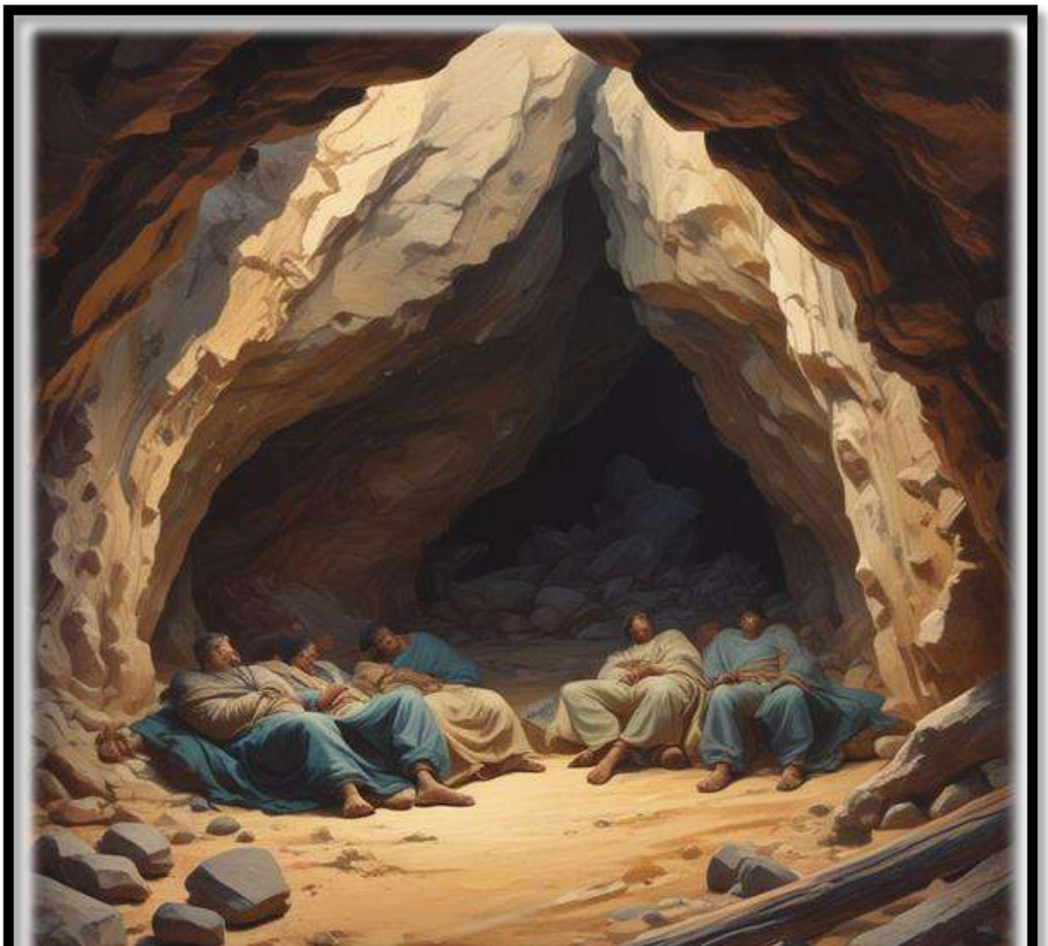

و بحقيقة علمية مثبتة بالحساب يقضي الإنسان **ثلث عمره** كاملاً على الأقل و هو نائم .. لذا عندما يتوفى إنسان عن عمر **60** عاماً فالأحرى أن يكتب على نعوته (توفي عن عمر ناهز **40** عاماً) .. فالعشرون عاماً الأخرى مضت و هو نائم كلمحة بصر لم يشعر خلالها بالوقت على الإطلاق

و يجدر التنويه أيضاً أن مفهوم الوقت يرتبط ارتباطاً وثيقاً بفكرة الإنجاز .. فالإنسان يقيم سنوات حياته بإنجازاته فيها فيعتبر السنوات الغنية بالأعمال جديرة بالوقت الذي قطعته في حين يعتبر السنوات التي لم ينجز فيها أموراً مفيدة لنفسه أو للآخرين غير محسوبة من عمره و كأن الزمن فيها توقف ليعود و يمضي مع عودة الإنجاز .. و لا يخفى علينا بأن الإنجاز هو شكل من أشكال الحركة و الأحداث و التغيير بأبهى صورها و أدق معانيها ..

و لقد لخص العالم الشهير نيوتن فكرة العامل الثاني بمقولته الشهيرة :

((الزمن هو مقدار مستمر للحركة، بحسب التفاعل المتبادل للأشياء التي تحدث في العالم))

لنطوي صفحة العامل الثاني و ننتقل الآن إلى العامل الأخير

و هو العامل العلمي الفيزيائي (**علاقة سرعة الحركة بالزمن**) .. و لكي نشرحه باختصار يجب الإشارة إلى **نظرية أينشتاين النسبية** التي تقول في أحد بنودها :

((الزمن يتباطأ كلما زادت حركة الأجسام حتى يتوقف تماماً عندما تصل لسرعة الضوء ..))

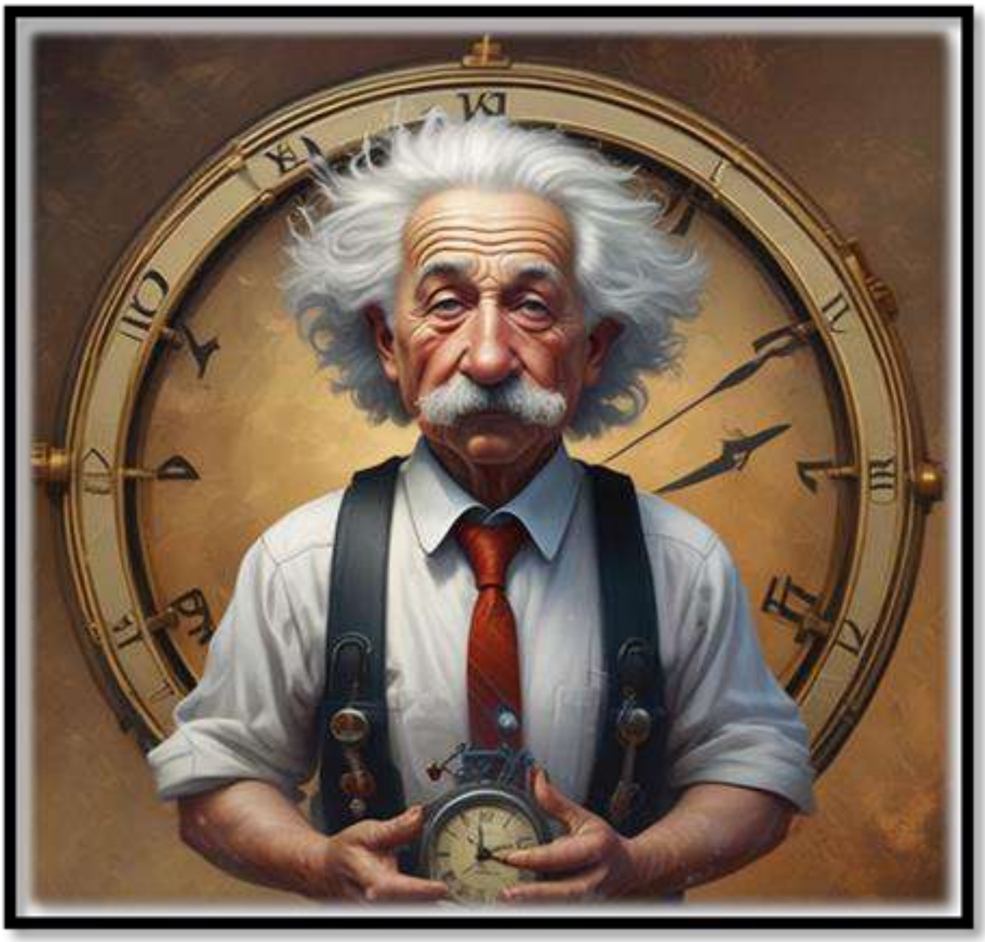

و هذا ما يفسر مثلاً لماذا يمر الوقت ببطء أكثر على رائد الفضاء في الفضاء الخارجي و هو يقود مركبته الفضائية بسرعات عالية ليعود إلى الأرض مجدداً شاباً كما كان في

حين يكون أبناؤه قد هرموا مع مضي السنين على الأرض .. رغم أن الزمن الذي انقضى هو نفسه بشكل مجرد لكن الحركة السريعة عبثت بأناملها الطائشة في عداد الوقت .. فتشكلت هذه الهوة العميقة بين الجانبين ..

و في القرآن الكريم إشارة إلى هذا العامل و ما أكدته النظرية النسبية :

((**و إن يوماً عند ربك كألف سنةٍ مما تعدون**))

فإذا ما قرنا هذه الآية بالطبيعة النورانية للأرواح في الجنان نرى بأن سرعتها هناك تعدل في مفهوم الزمن الذي اعتادت عليه الأجساد المادية الفانية على كوكب الأرض ..

و قد عبّر الرسام الإسباني الشهير **سلفادور دالي** عن هذه الفكرة بطريقة ساحرة في لوحته الشهيرة (**إصرار الذاكرة**) عندما رسم ما يوحي بأنه عالم خيالي مختلف عن عالمنا الواقعي مع رسم العديد من الساعات الذائبة التي تشير إلى بطء الوقت بميوعته ..

و إذا تعرفنا على سرعة دوران الأرض حول الشمس في الفضاء و هي **107** آلاف كيلو متر / ساعة سندرك بأن الوقت الذي تمضيه الأرض في دورانها حول الشمس أطول بكثير من السنة التي نفترضها و لكن ثباتنا عليها يتلاعب

بعدّاد الزمن .. علماً أن سرعة أشهر مركبة فضائية أبولو **10** لم تتجاوز **40** ألف كيلو متر / ساعة و هي نفسها المركبة التي ذكرنا آنفاً أن رائد الفضاء فيها سيعود منها إلى الأرض شاباً و قد هرم أحفاده ..

*****

في ختام مقاربتنا لمستهل مغالطات الكتاب ، مغالطة (**الزمن**) و كما لاحظنا فإن مفهوم الزمن مجرد وهم أو سراب و هو متغير من حالة لأخرى رغم ثبات دوران عقارب الساعة ..

و مع الانتهاء من مقاربة العوامل الثلاثة السابقة (السعادة و الألم ثم الأحداث و التغيير و أخيراً سرعة الحركة) و بعد إنجازنا لقراءة هذه الكتاب من الأنسب ألا نقول :

= لقد انقضت ساعة أخرى من عمري ..

بل أن نقول :

= لقد عبر عقرب الساعة محيط الدائرة **دورة كاملة** مضت على شخص يمارس هوايته المفضلة **دقائق قليلة** .. و على الجندي في ساحة المعركة **ساعات طوال** ، و على الشخص النائم **كأنها لم تمر** ، و على رائد الفضاء في مركبته السريعة **أجزاء من الثانية** ،و على الجنين في رحم أمه **بدون أي قيمة** أما على أرواح أجدادنا و أحبائنا الذين سبقونا إلى الجنان فقد مضت **سنوات أرضية طوال** حيث للزمن هناك مفهوم مختلف تماماً عما عهدناه على كوكبنا الأم (**الأرض**) ..

نحن من يقدر مدة الزمن و ليس الزمن من يؤطرنا بحدوده .. في حين تدور عقارب الساعة في دورة أزلية

أبدية ثابتة تعبر عن وقت وهمي لا أكثر ..

مخالطة الخير و الشر

(الرمادي ينتصر)

= أنا إنسان جيد ..

= أغلب الناس من حولي سيئون ..

= صديقي فلان لا مثيل له .. أما فلان الآخر فهو شر مطلق

*****

لا تخلو حياة أي منا من هذه الجمل ، التي ننسب الخير فيها إلى أنفسنا و بعض معارفنا .. في حين نلصق الشر و المكر و الخبث بأغلب الناس الآخرين .. و كأننا قضاة منحتهم السماء شرعية التصنيف و خولتهم تقييم البشر و محاكمتهم ..

و السؤال الذي علينا وضعه في محرق التفنيد هنا :

((**إن كنا جميعاً خيّرين في نظر أنفسنا فمن هو الشرير في الحكاية** ؟!))

نميل بطبيعتنا البشرية و منذ نعومة أظفارنا إلى تقسيم الحياة إلى لونين فحسب (**أبيض و أسود يتصارعان**) و نسحب هذا التبسيط على كل شيء من حولنا من أشخاص ، مواقف

، أحداث ، ذكريات و حتى مجموعات أو دول ..

في الطب النفسي توصف هذه الحالة **باضطراب الشخصية الحدية** التي لا تستطيع تمييز الألوان في الكون فكل شيء إما مثالي بحت أو نقيضه من النقص .. و يعاني جميع البشر من هذا الاضطراب بأطياف متنوعة كتنوع أطياف اللون الأبيض .. من اضطراب خفيف يكشف بالأشعة تحت الحمراء للطبيب النفسي الخبير ذي العين الثاقبة إلى اضطراب مرضي بحاجة لعلاج لا تقل خطورته عن الأشعة فوق البنفسجية التي تحمينا طبقة الغلاف الجوي من أضرارها المسرطنة كما تحمينا الحكمة و المنطق و التجرد و الحياد من تقسيم الأمور إلى نقيضين فحسب لا يقبلان القسمة على اثنين كسرطان فكري يغزو حيواتنا ..

و في الحقيقة هذا التقسيم المضطرب و غير العقلاني للأمور يرجع إلى بدايات البشرية و منذ بدأت الفلسفة تحبو بأولى خطواتها على طريق التحرر النفسي و العقلي الطويل و الوعر ..

فإذا عدنا على سبيل المثال إلى **القرن الأول قبل الميلاد** و مع بزوغ شمس **الفلسفة التاوية** العريقة و الملهمة في كثير من جوانبها على يد الفيلسوف **لاو تسو** في الصين الذي لخص الحياة كلها كصراع بين الخير و الشر و رمز

إليها **برمز التاو** الشهير (**الدائرة بنصفين أبيض و أسود**) واسماً بذلك تفاصيل حياة ربع سكان العالم بهذين اللونين و مولدا لاضطراب الشخصية الحدية كوباء جمعي ينهش في النفوس ..

لكن و رغم هذا الخلل العميق في رؤية العالم من حولنا من هذا المنظور الضيق إلا أن شعار التاوية حمل في طياته ثقباً صغيراً يمر منه الضوء بأطيافه الملونة إلى مسامات عقولنا و عيون بصيرتنا المخفية عندما جعل لاو تسو نقطة بيضاء في النصف الأسود و نقطة سوداء في النصف الأبيض .. و

كأنه يقول للجميع بشكل غير مباشر و ربما غير مقصود :

((ليس هنالك من خير مطلق أو شر مطلق في هذه

الحياة بل الأمور نسبية بالمطلق))

و هذا في الحقيقة جوهر المغالطة و مربط الفرس فيها .. فكل إنسان منا يتناوب في حياته على فترات من الخير تتخللها شوائب مقصودة أحياناً و فترات من الشر غير المقصود في كثير من الأحيان تتخللها محاسن لا يجدر بنا التغاضي عنها .. عدا عن كون أفكارنا ، كلامنا و أفعالنا تحمل في طياتها الصواب و الخطأ على حدٍّ سواء كما تحمل الخير للبعض و الشر للبعض الآخر في نفس اللحظة على الدوام ..

فكم قلنا كلاماً أسعد البعض و رفع همتهم عالياً إلى السماء لكنه أصاب مقتلاً من البعض الآخر و شكل أزماتٍ نفسيةٍ لا حدود لها لهم ، كالمعلمة التي شرحت لتلاميذها الصغار عن أهمية وجود الأم في حياتهم و روت لهم عن حنانها و تفانيها الذين لا يعوضان فكان كلامها ملهماً للأغلبية و دعوة إلى تقدير الأمهات مع رفد الحياة بأمهات جدد يتحلين بهذه الصفات .. لكنه كان من زاوية ضيقة أخرى كسهام سامة

اخترقت قلوب الأيتام منهم كملح ينثر على جراحهم و معاناتهم ..

و كم قمنا بأفعال طورت و حسنت حياة كثيرين أثنوا عليها و تناقلت الأجيال مآثرها، لكنها شكلت عوائق و عقبات في طريق آخرين ليتذكروها بمنتهى الألم و البغض، كالدولة التي صنعت سد مياه مكان عبور نهر ما في إحدى القرى فأمن مخزونا مائياً احتياطياً للزراعة و الري لعشرات القرى من حوله التي أثنت على ذاك الفعل و اعتبرته من أهم إنجازات الدولة، لكنه من زاوية أخرى سبب تهجير و تشرد القرية التي أنشئ السد مكانها فأثار غضبها و استياءها فكانت مياه السد عليها فيضاناً دمر حياة سكانها و قلبها رأساً على عقب ..

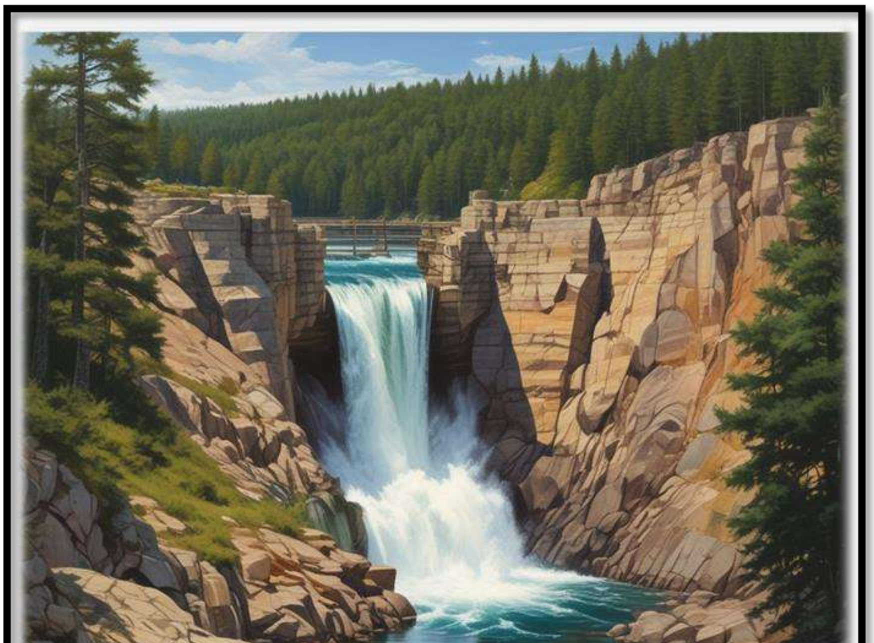

أو كالأب الذي اصطحب أطفاله للعب في حديقة الملاهي صباح العيد بثيابهم الجديدة فشرعوا يلهون بضحكاتٍ بريئةٍ تخترق عنان السماء دون أن يرى نظرات ذلك الطفل المشرد بثيابه الرثة الذي يفترش الأرصفة العارية و قد صفعته البرودة على خديه الطريين المحمرين و هو يشعر بالحسرة و الغبن من حياة حرمته من كل ذلك .. فالأب خيّر و مثالي في عيون أبنائه .. لكنه شيطان يخرج من جعبته شرور الأرض في عيون ذلك الطفل المشرد ..

و الأمثلة تطول و تتسع إلى المهاجرين الجدد إلى الأمريكيتين الذين أنقذوا عوائلهم من حروب و أوبئة أنهكت

أوروبا إلى عالم جديد خصب و شاسع لكنهم أجهزوا على آلاف العوائل من سكان الأرض الأصليين من الهنود الحمر ، فهم في عيون أحفادهم أبطال مكافحون و في عيون أحفاد الهنود قتلة مجرمون و محتلون ..

و لا ننس هنا أيضاً قصة **روبن هود** الشهيرة الذي اعتاد سرقة الأثرياء لإعالة الفقراء فهو في عيون الأغنياء لص معتدٍ و في نظر الفقراء قديس مخلص .. و كم نتقمص شخصية روبن هود في نواحي حياتنا المختلفة ..

و نعود مجدداً إلى السؤال الهام هنا الذي يفرض نفسه بقوة :

((من هو الإنسان الخيّر و من هو الإنسان الشرير في الحكاية))

و الجواب على هذا السؤال كما أسلفنا هو :

((لا أحد خيّر بالمطلق و لا أحد شرير بالمطلق))

فكل منا يحمل في طياته جوانب خيرة و جوانب شريرة ..

فإن أصابت محاسننا البعض قالوا عنا صالحين و إن أصابت عيوبنا البعض الآخر قالوا عنا أشراراً بلا رحمة أو رادع .. لذلك بالضبط نقول عن بعض معارفنا بأنهم أصدقاء بسبب احتكاكنا بالنصف الأبيض من أرواحهم و إفلاتنا من عواقب النصف الأسود منها .. في حين أنهم أنفسهم أعداء لغيرنا بسبب انعكاس الظروف و عدم تطابق الشخصيات و الألوان على بعضها البعض ..

يقال في المثل الشعبي :

((لولا اختلاف الأذواق لكسدت البضائع في الأسواق))

و لو لا اختلاف شخصياتنا و تدرج محاسننا و عيوبنا لكسد الأصدقاء و لما اجتمع قلبان على رؤية واحدة للحياة ألفت بين القلبين و مزجت البياض فيهما معا تاركةً السواد

لغيرهما يتضرر منه (الأعداء المفترضين) ..

و من المهم أيضاً ذكر أنه حتى الشخصيات المرضية تجد عزاءها و تكملتها في شخصيات مرضية أخرى .. فالإنسان السادي الذي ينفر منه الناس و يشتمونه بكل ما في جعبتهم من ألفاظ و مصطلحات قاسية كجلد السياط هو صديق وفي للإنسان المازوخي فيسعدان بعضهما .. و الشخصية المتسلطة أو النرجسية تجد ضالتها في الشخصية الانقيادية أو الاعتمادية .. و هكذا يرسخ شعار التاو لفكرة تكامل طباع و محاسن و عيوب البشر مع بعضها دون أن يخلو كل نصف من الدائرة من آثار و لو خفيفة من نقيضها .. و مع تبادل الأدوار مراراً و تكراراً بين الشخصيات مع مرور الوقت ، تغير الظروف و الحيثيات و تدرج الحكمة و الوعي

لذا علينا أن نتذكر على الدوام أن ما نبغضه أو نتهمه بالشذوذ أو الاختلاف عما هو متعارف عليه - من وجهة نظرنا على أقل تقدير - هو بمثابة ملاك مخلص و طوق نجاة لغيرنا .. و هذا ما ينطبق على أنفسنا على حد سواء ..

و في الحقيقة كل منا يحمل في أعماقه شعار التاو بكليته فنصفنا أبيض للبعض و أسود للبعض الآخر و العكس بالعكس فلا أحد منا يحتكر الخير أو حتى الحقيقة لنفسه .. و من الغرور و النرجسية المفرطة أن ندعي كمالنا و بأننا خير مطلق مترفع عن أي نقص أو عيوب أو شر و إن أغدق

علينا الأقارب و الأحباء و الأصدقاء من مديح يدعي كمالنا و اختلافنا عن آخرين ناقصين من وجهة نظرهم الضيقة ..

و كما يقول الأديب العظيم **مكسيم غوركي** :

((الورقة التي لم تسقط في فصل الخريف خائنة في عيون أخواتها، وفية في عيون الشجرة، ومتمردة في عيون الفصول، فالكل يرى الموقف من زاويته))

كذلك الجندي الذي يقتل في المعارك هو شهيد تنتظره الجنة

في عيون عائلته و زملائه و وطنه .. و عدو أُجهز عليه و أُرسل إلى الجحيم في نظر خصمه في المعركة .. و هذا ما ينطبق على أفعال البشر التي يفسرها الآخرون كل تبعاً لأفكاره و مبادئه و عقيدته كخير مطلق أو شر مطلق .. و ينسحب هذا التحليل على مفهوم (**الصح و الخطأ**) الأشمل بحد ذاته..

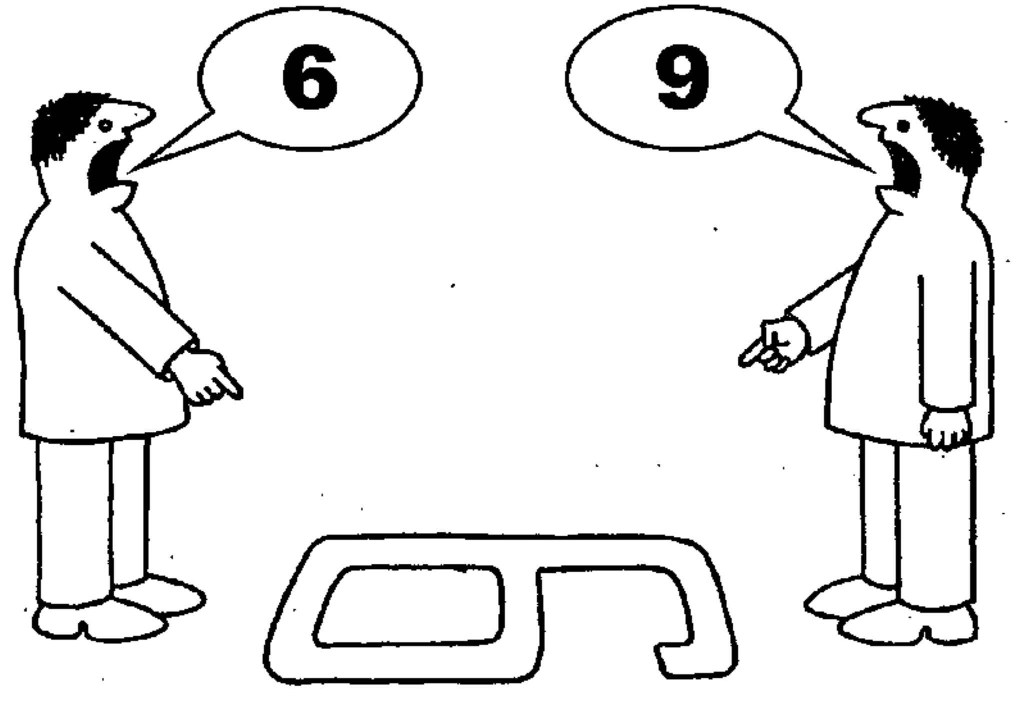

و كأبسط مثال على ذلك ما يعتبر فعلاً صائباً يستحق المديح في بعض المجتمعات يعتبر خاطئاً و مسيئاً في مجتمعات أخرى .. فتقبيل الخد عند السلام كمثال صغير قد يعني محبتك و احترامك للطرف الآخر عند البعض و يعتبر تحرشاً أو تجاوزاً للحدود عن البعض الآخر فأنت بفعل واحد صالح للبعض و مسيء لآخرين فيختلف تقييمك تبعاً للأعراف و التقاليد ..

و لا ننسى أيضاً حيثيات الظروف المحيطة بكل قول أو فعل .. فما هو صحيح و ممجّد في ظروف معينة هو نفسه نقيض ذلك في ظروف أخرى .. و كمثال بسيط نتحدث عن تلميذين تركا المدرسة ، فهذا الأمر بشكل مجرد فعل خاطئ .. لكن التلميذ الأول اضطر لتركها بسبب ظروف قاهرة حيث توفي والداه فأجبر على العمل كي يعيل إخوته الصغار فهو مضحٍ و متفانٍ و صالح بالمحصلة ، أما التلميذ الثاني فتركها على خلفية الطيش ، عدم الالتزام و قلة تحمل المسؤولية ، و حتى هذا ليس شخصاً سيئاً بشكل كامل و علينا ألا نتسرع في ذمه و تقريعه ، فعندما عرضه والداه على طبيب نفسي تبين أنه يعاني من **مرض فرط النشاط و قلة الانتباه** الذي يعجز فيه التلميذ عن التركيز و مواكبة التحصيل الدراسي دون أن ننسى أن أساتذته و زملاءه ينعتونه عن جهالةٍ كما ذكرنا آنفاً بالطيش و عدم الالتزام أو تحمل المسؤولية و هي في الحقيقة أوصاف ظالمة بحقه إن اطلعنا على حقيقة وضعه الصحي ..

و بمثال آخر عندما يتبرع شخص متوسط الحال إلى جمعية خيرية بمبلغ زهيد اقتطعه من لقمة عيشه لمساعدة الفقراء الأقل حظاً منه في حياتهم كونه يعلم جيداً معنى الحرمان و الحاجة ، في حين يتبرع ملياردير بمبلغ هائل لنفس الجمعية من باب رياء و تفاخر لا أكثر علماً أنه كون ثروته من اختلاس أموال الفقراء أنفسهم ، فهو في أعماق الحقيقة سرق

رغيف الخبز منهم ثم أعطاهم كسرةً منه كي يشكرونه عليها .. و للأسف سيتذكر أعضاء الجمعية تبرع الغني فقط لضخامته علماً أنه من وجهة نظر علمية نسبية و أخلاقية أيضاً فالفقير هو الصالح في الحكاية لكن الثناء ذهب للشخص الخطأ كون الناس ينخدعون بالمظاهر ، الأرقام و القشرة الخارجية الظاهرة للعين للمحارة متغافلين عن اللؤلؤة الكامنة في أعماقها ..

و هكذا لكل إنسان منا قصته الخاصة و ظروفه القاهرة و الاستثنائية التي تفسر أفكاره ، كلامه و أفعاله مهما كانت سلبياتها علينا و مهما اكتوينا بنيرانها ..

*****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الثانية (**الخير و الشر**) .. من الأنسب بعد الآن ألا نقول :

= أنا إنسان جيد بالمطلق ..

بل أن نقول :

= أنا إنسان جيد لبعض البشر الذين يرون نصفي الأبيض و سيء للبعض الآخر الذين عانوا من نصفي الأسود الذي ربما ليس لي سيطرة عليه ..

و ألا نقول :

= أغلب الناس من حولي سيئون ..

بل نقول :

= جميع الناس من حولي مزيج من أبيض و أسود ، لذا عليّ اغتنام النصف الأبيض منهم و التماس الأعذار لنصفهم الأسود و تجنبه فحالي من حالهم و لا أختلف عنهم ..

و ألا نقول :

= صديقي فلان لا مثيل له .. أما فلان الآخر فهو شر مطلق

بل نقول :

= صديقي فلان الرائع تنسجم اختلافاتنا مع بعضها أما فلان الآخر فنفتقد للكيمياء و التوازن بيننا و ربما دار الزمن دورته و تغيرنا ثلاثتنا و تبادلنا الأدوار مع تغير ظروفنا ، أفكارنا و معتقداتنا و تطور وعينا و حكمتنا ..

و كما يقول الفيلسوف الصيني ذو التوجه الكونفوشيوي (مينسيوس) :

((**الخير و الشر مصطلح نسبي فما هو خير للبعض**

قد يكون في نفس الوقت أو في زمن آخر و ظروف

مختلفة شر للبعض الآخر))

و في القرآن الكريم ذكر لهذه الفلسفة عندما يقول الله تعالى :

((يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم))

و هنا ينبهنا الله تعالى إلى عدم الحكم المسبق على الآخرين و تقييمهم بناء على نظرتنا الشخصية الضيقة ، ففيهم كثير من الجوانب الخيّرة التي لم نرها و ربما كانوا أفضل منّا فيها

و كذلك قول رسول الله **محمد** كما نقل إلينا **أبو ذر الغفاري** :

((لا يرمي رجلٌ رجلاً بالفسوق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك))

و هذه دعوة لنا إلى عدم تصنيف البشر من حولنا و وصمهم بصفات سيئة دون أن نعي بأن في داخلنا ما لا يقل عنهم منها ..

و لقد لخص السيد المسيح بدوره كل ما سبق ذكره عندما خاطب القوم الذين أرادوا رجم **مريم المجدلية** على خلفية اتهامها بالفسوق قائلاً :

((من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بالحجارة))

و هذا تصريح جليّ إلى امتزاج الأبيض و الأسود في كل منا مما يوجب علينا ألا نحكم على الآخرين و نعاقبهم قولاً أو فعلاً بل أن نتوجه إلى أعماقنا و **نرجم سوادنا بالحجارة** في محاولة لتطهير أرواحنا و الارتقاء بها نحو السماء على سلم التحرر الروحي و النيرفانا ..

فكل منا **آلة بيانو** تعزف الحياة على درجاتها البيضاء و السوداء أجمل السمفونيات فيصيب خيرنا من يصبه و يصيب شرنا من يصبه ، فعلينا أن ندعو الله أن يصل خيرنا

إلى قلوب أكبر عدد من الناس و يقينا من رجم الآخرين بعيوبنا و أن يغفر لنا إن حدث ذلك عن جهل أو غير قصد ..

و ما أروع شيخ المتصوفين الزاهد **جلال الدين الرومي** حين قال :

((**فيما مضى كُنت أحاول أن أغير العالم ، أما الآن و قد لامستني الحكمة ، فلا أحاول أن أغير شيئًا سوى نفسي**))

فقد وعى شيخ الفلسفة الصوفية و قد أسكرته الخمرة الإلهية إلى أن ما فيه من عيوب لا يقل عن عيوب الآخرين ، لذا

بدلاً من تقييمهم و وصمهم بالنقائص و العيوب قرر و قد تشبّع بالحكمة أن يعمل على تغيير عيوبه الشخصية و ترميم نقائصه إن استطاع إلى ذلك سبيلاً و ما أقل من يفعل ذلك منا

و في ختام مقاربة هذه المغالطة نلخّص كل ما سبق بالقول :

((**ستنتصر الحكمة فينا عندما يُهزم تصنيف الأبيض و الأسود في عقولنا الضيقة و ينتصر الرمادي في نظرتنا إلى ذاتنا و ذوات الآخرين من حولنا لتتسع رؤيتنا على رحابة الكون بألوانه الزاهية المتنوعة**))

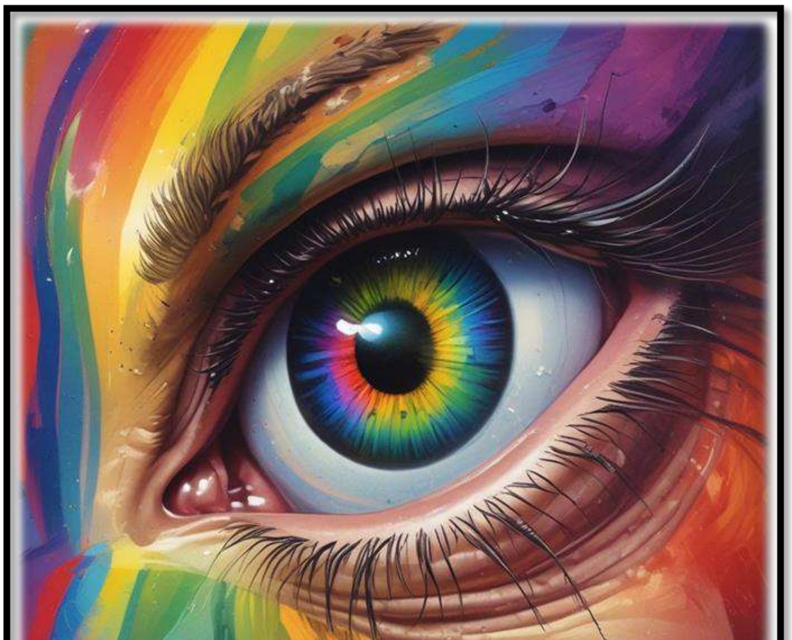

مغالطة ناقصات عقل و دين

(ملكة النحل)

= يا لها من أستاذة جامعية فاجرة .. هذا ما ينقصنا أن تتطفل الإناث على مهنة التعليم أيضاً .. المكان المناسب للدجاجات هو قنهنّ ..

= أنا كطالب جامعي أراها أستاذة ناجحة و شخصية محترمة لأبعد حد ..

= هذا لأنك تشبهها .. لا تدعني أشك برجولتك !

= حقاً ! بالمناسبة لقد سمعت أحد الأصدقاء يصف أمك بأنها ناقصة عقل و دين .. فارتأيت أن من الأنسب أن أخبرك عنه ..

= ماذا تقول ؟ من هو هذا السفيه ؟ .. أخبرني باسمه حالاً كي أوسعه ضرباً .. أمي تملك من الفهم و الإيمان ما يوزّع على البشرية جمعاء ..

= لماذا كل هذا الغضب يا صديق .. ألست أنت بنفسك من يصف الإناث بأنهن ناقصات عقل و دين في مناسبات كثيرة و أنّ القنّ هو مكانهنّ المناسب و عليهنّ نظراً لقصور عقلهنّ و إيمانهنّ أن يلتزمن بيوتهنّ كي لا يدمرن المجتمع ؟! إن أمي و أمك من الإناث كما أعتقد فلماذا لا يشملهنّ هذا الوصف الجائر أيضاً ؟ .. بالمناسبة ما من صديق وصف أمك بذلك إلا أنت .. فانتبه إلى تناقضاتك و لا تظلم الإناث الناجحات بتعميم صفة شنيعة كحال (ناقصات عقل و دين) عليهنّ جميعاً ..

*****

هذا الحوار السابق و الشائع للأسف الشديد يطرح مغالطة خطيرة و هامة للغاية منتشرة في كثير من الأوساط الدينية و الاجتماعية في العالم .. حيث توصم الإناث فيها بصفة جائرة و مهينة بأنهنّ (**ناقصات عقل و دين**) و ما يترتب على تحليل هذه الصفة من قصور عن إدارة الحياة (العائلية منها أو المهنية) بسبب قلة العقل ، و الحرمان من الجنة أو لعب دور الجواري فيها في أحسن الأحوال بسبب نقص الدين ..

فهل هذه الصفة حقيقية ؟ و هل جميع الإناث كذلك ؟ و لماذا نخرج أمهاتنا غالباً من دائرة هذه الصفة و نثور إن وصفهن أحدهم بها في تناقض و انفصام غريب و مثير للسخرية أيضاً ..

للإجابة على هذه الأسئلة سنقارب مغالطتنا الجديدة في هذا الكتاب من عدة زوايا تحلل دور الأنثى في المجتمع في بعض المجالات على سبيل المثال لا الحصر لنقيم من خلالها مدى صحة مقولة (ناقصات عقل و دين) في وصف الإناث :

◈ **الزاوية الأولى** : **الأم** ، و هي أهم الزوايا .. فالأم هي من خصها الله في كل هذه الحياة التي خلقها بدورين رئيسيين يعجز الذكور عن القيام بهما و يتطلبان من العقل و الإيمان الكم الهائل لتنفيذهما بإتقان ، مما يدق أول مسمار

في نعش تلك المقولة الشنيعة ، و هذان الدوران هما :

● **الحمل و الإرضاع** : فالأنثى تتعرض عن رضا و طواعية لأصعب تجارب الحياة خلال حملها بأطفالها بدءاً من تغير نمط حياتها جذرياً مع الحرمان من جوانب كثيرة في الحياة ، إضافةً إلى التعب المزمن و الإرهاق و كل ذلك لمدة لا يستهان بها من الزمن (**9** أشهر كاملة) تعدل فيها طبيعة غذائها ، كما تتجنب الإرهاق الزائد الذي كثيراً ما تعجز عن فعله بسبب مسؤولياتها المنزلية من تنظيف ، طبخ ، غسيل و غيرها ، و تبتعد عن أي مصدر ممكن للعدوى كحالة من شلل الحياة و الخوف الدائم ، كذلك فهي تُحرم من طيف واسع من الأدوية إن مرضت و هي في أمسّ الحاجة لها ، عداك عن مضاعفات الحمل المحتملة من داء سكري ، ارتفاع توتر شرياني ، نوبات صرعية ، مشاكل غدة درقية ، زيادة وزن و غيرها كثير لا يتحمل الذكور عواقب أي منها .. لتأتي في نهاية كل ذلك تجربة المخاض و الولادة العسيرة التي يصنفها العلم كأشد أشكال الألم الذي يختبره الإنسان ، ثم يتبعها دون استراحة تعب ما بعد الولادة ، و أخيراً تجربة الإرضاع كمصدر غذائي وحيد للطفل الجديد ، و بمعنى آخر لولا الأنثى لما وجد البشر من الأساس أو لهلك جميع الأطفال في مهودهم في أحسن الأحوال .. لذا نجد الله تعالى يصف هذه التجربة العسيرة بقوله :

((**حملته أمه وهناً على وهن**))

و في ذلك إشارة إلهية صريحة إلى درجة معاناة الأم الهائلة في تجربة الحمل .. و تحضرني هنا أبيات للشاعر العبقري **أبو العلاء المعري :**

العيش ماضٍ فأكرم والديك به

والأمّ أولى بإكرامٍ و إحسان

و حسبها الحمل والإرضاع تدمنه

أمران بالفضل نالا كلّ إنسان

و بعد كل هذا التعب المتواصل لا تتوقف قافلة المعاناة هنا ليأتي الدور الثاني الأكثر مشقّةً :

● **التربية** : فباعتبار أنّ الأب يتواجد أغلب اليوم خارج المنزل من باب العمل أو الترفيه ، فيقع عبء تربية الأطفال بالكامل تقريباً على كاهل الأم ، لتتابع تطورهم الروحي الحركي من كلام ، حركة و تواصل مع الآخرين ، ثم تعليمهم مهارات الحياة الأولى من ارتداء الملابس ، تناول الطعام ، استخدام الحمّام و القائمة تطول من مسؤوليات لا يتعرّف عليها الذكور أبداً .. و هذا ما لخصه الشاعر الكبير **معروف الرصافي** بإبداع بأبياته :

أوجب الواجبات إكرام أمي

إن أمي أحق بالإكرام

حملتني ثقلاً و من بعد حملي

أرضعتني إلى أوانِ فطامي

و رعتني في ظلمة الليل حتى

تركت نومها لأجل منامي

إنّ أمي هي التي خلقتني

بعد ربي فصرت بعض الأنام

فلها الحمد بعد حمدي إلهي

و لها الشكر في مدى الأيام

فكيف بحق السماء ينيط الله (و هو الحكمة المطلقة) هذين الدورين الرئيسيين بمن يدعي البعض أنهن (ناقصات عقل و دين) رغم أنّ القبول بأتعاب الحمل مجاناً و طواعيةً لأجل ولادة الطفل يتطلب ذروة الإيمان و تربيته تقتضي بالضرورة قمة العقل .. !!

◈ **الزاوية الثانية** : **الزوجة** ، فالأنثى هي من تهتم بزوجها في مختلف نواحي الحياة و تخفف عنه أعباء الدنيا و همومها كما تمنحه الصبر للمضي قدماً في عمله و مسؤولياته .. فصدق الله تعالى بقوله :

((**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها و جعل بينكم مودةً و رحمةً**))

و السكن هنا مشتق من السكينة و الاطمئنان ، فكيف يمكن لأنثى ناقصة عقل و دين أن تمنح الذكر هذه السكينة النفسية و هي تتطلب أقصى درجات الإيمان و العقل بدورها ، دون أن ننسى أن واجبات الأنثى الزوجية تقوم بها وسط متاهة و ضجيج تربية الأبناء و أعباء المنزل التي لا تعد و لا تحصى ناهيك عن هموم الحياة التي تقصم الظهر .. فمن أين تأتي

الإناث بهذه القدرات الجبارة ؟ ..

و في خلق الله لحواء رفقة آدم في الجنة خير مثال على ضرورة وجود الأنثى في حياة الذكر ، فحاشى لله أن يكون عاجزاً عن الاكتفاء بخلق آدم وحيداً .. و لكن في ذلك إشارة صريحة إلى أن حياة الذكر لن تكتمل و تستقيم إلا بوجود الأنثى الجبارة إلى جواره ..

◈ **الزاوية الثالثة** : **الابنة** ، و لا شك أننا جميعاً نلاحظ في الحياة من حولنا أن الأبناء الذكور متى ما اشتد عودهم ينشغلون عن آبائهم بالعمل و عائلاتهم ، أما الأبناء الإناث فيخلقن في زحمة مسؤولياتهم الجمة الوقت الكافي لآبائهن و يعتنين بهم حتى آخر لحظة من حياة الطرفين ..

◈ **الزاوية الرابعة** : **العاملة** ، و كثير من الإناث هنّ بالتجربة و الدليل أفضل و أكفأ من كثيرٍ من الذكور في مختلف المهن ، كالتعليم ، التمريض ، الطب ، الهندسة و الآداب، و لمن يتشدق بمقولة الأنثى مكانها المناسب هو منزلها (القنّ) أتركه مع مثال وحيد كافٍ و وافٍ يرد الجواب عليه :

((**إن الرسول محمد تزوج من أنثى عاملة** (**خديجة**) **التي امتهنت التجارة** ، **و عمل عندها فكانت تؤتيه أجره** ، **أي أن خاتم الأنبياء و المرسلين عمل في شبابه تحت سلطة أنثى !**))

فهل يرضى الله بأن يعمل رسوله تحت سلطة (ناقصة عقل و دين) أم أنّ محمد كان على خطأ ، أم أن بعضنا أكثر رجولةً و علماً منه ؟

◈ **الزاوية الخامسة** : **القائدة** ، فالتاريخ يعجّ بالإناث القادة اللاتي حكمن بمنتهى الاقتدار و الحكمة من أمثال **أليسار** ملكة قرطاج ، **زنوبيا** ملكة تدمر ، **ديهيا** قائدة الأمازيغ ، **بلقيس** ملكة سبأ ، الملكة **فيكتوريا** ملكة

بريطانيا ، الفارسة الثائرة **جان دارك** .. و القائمة تطول و لا تكفيها موسوعات لتشمل كل الإناث القادة .. فلو كانت الأنثى بالفعل ناقصة عقل ، كيف تمكنت كل هؤلاء الإناث من حكم دول عريقة في التاريخ بمنتهى البراعة و الحنكة و الدهاء و الوصول بها إلى مصاف الدول العظمى عبر صفحاته .. ؟

و في الطبيعة خير مثال ضربه الله لنا عن براعة و حكمة الأنثى في القيادة و منزلتها الكبيرة أيضاً ، فأكثر التنظيمات تعقيداً و نظاماً في الطبيعة تديره أنثى عادةً ، كحال مملكة النحل و مملكة النمل و ملكاتهنّ القادة .. و هما سورتان من

سور القرآن الكريم كتكريم للأنثى في أحد جوانبه .. و لا نستغرب عندما يصف البشر الطبيعة ككل بقولهم (أمنا الطبيعة) ..

◈ **الزاوية السادسة** : **المؤمنة** ، و أكتفي بذكر بضعة

أمثلة بسيطة تدحض مقولة (ناقصات دين) و تهدم أسسها:

= كيف يمكن أن نصف زوجات الرسول محمد **بأمهات المؤمنين** و نقتنع بأنهن ناقصات دين في ذات الوقت !؟

= هل السيدة مريم العذراء أو فاطمة ابنة الرسول محمد ناقصات دين .. و نؤمن يقيناً أنهما رمزان للطهارة ؟!

= هل الأم تيريزا ينقصها الإيمان و هي مجبولة به و أصبحت رمزاً له بين البشر قاطبةً ..؟!

بالطبع لا .. فالأنثى لا تقل – إن لم تتفوق – عن الذكر في إيمانها و خشوعها .. بل أنها تتسلح به بقوة أكبر كي تواجه أعباء الحياة المتعددة و المتنوعة التي تواجهها و لا تواجه الذكور ..

بعد هذا التحليل الوجيز لإمكانيات الأنثى في بعض جوانب الحياة فحسب نستخلص النتيجة البديهية بأن مقولة (**الإناث ناقصات عقل و دين**) ليست خاطئة فقط ، بل غير منطقية البتة و مثيرة للسخرية في كثير من جوانبها ، و أكثر ما يثير التهكم فيها هو رفض الذكور تطبيق المقولة على أمهاتهم مثلاً على نحو انفصامي ، متناقض و غريب .. و مع انتهائنا من تحليل النقاط السابقة أثق بأنها كانت مسامير دُقّت في نعش تلك المقولة تماماً آملاً أن تموت و تنتهي بها إلى الأبد..

في نهاية مقاربتنا يتبقى لدينا نقطة وحيدة هامة و هي الردّ على من يتحجج بتفوق الذكور على الإناث من منطلق أن جميع الأنبياء كانوا ذكوراً ، و الجواب البسيط يكون بأن هنالك إناث حملن بهؤلاء الأنبياء ثم ولدنهن و أرضعهن و

بعدها قمن بتربيتهن و وقفن إلى جوارهم في حلو الأوقات و مرها ، و لا ننسَ أول شخص لجأ إليه الرسول محمد بعد نزول الوحي عليه و هو جزع كانت زوجته خديجة فهدّأت من روعه .. فإن كان الذكر قمراً منيراً فإنّ من خلفه أنثى كالشمس يستمد ضوأه منها و من دونها هو مجرد صخر أبكم و معتم إلا الله سبحانه حاشى أن يكون مخلوقاً معتمدا على غيره فتسقط عنه صفة القدرة و الألوهية .. صدق من قال :

((وراء كل رجل عظيم امرأة))

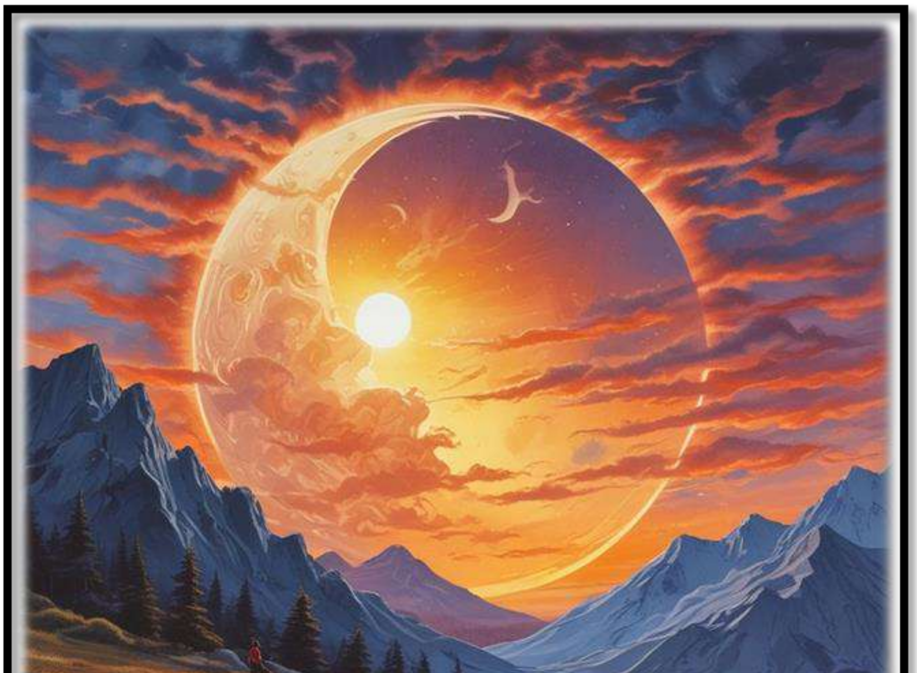

أترككم أخيراً مع مثالين من الحياة يصفان حالة المرأة فيها بدقة بالغة و كيف يتفوقن على الذكور رغم نسب الفضل و

الأهمية غالباً إلى الذكور ظلماً و إجحافاً :

◄ **الأسد** الذي يوصف بملك الغابة من النادر أن يقوم باصطياد الفرائس بنفسه بل اللبوة هي من تقوم بهذا العمل في **90** % من الحالات لتطعم صغارها كما تطعم الأسد أيضاً ، لكن صفة الملك تذهب زوراً إلى الشخص الخاطئ

◄ في لعبة **الشطرنج** الملك هو أهم قطعة على الرقعة رغم أنه أقل القطع قدرة على الحركة ، أما الوزير الأنثى فهو أكثرها إمكانية للتنقل فمهاراتها متعددة وواسعة و هي من تقوم بالدرجة الأولى بحماية الملك و إن خسرها اللاعب

فإن الملك سيموت في أغلب الحالات ..

*****

في ختام مقاربتنا للفرد الجديد في عائلة المغالطات و هو مغالطة (**ناقصات عقل و دين**) ، من الأنسب بعد الآن ألا نقول :

= الإناث قاصرات عن العمل و القيادة بسبب قصور عقولهنّ .. و عاجزات عن فهم الدين بسبب قلة إيمانهنّ ..

بل أن نقول :

= الإناث اللاتي منحهنّ الله شرف الحمل بالأطفال و

تربيتهم رغم كل ما يرافق ذلك من ألم و معاناة و إرهاق ، يمتلكن بالدليل القاطع القدرة الجبارة على فعل أي شيء في هذه الحياة و ليس ما يفعله الذكور فحسب ..

و ألا نقول :

= جميع الإناث ناقصات عقل و دين ..

بل أن نقول :

= التعميم في حد ذاته مغالطة خطيرة .. فهنالك من الرجال ما يفتقرون للعقل و/ أو الدين في حياتهم أكثر من أغلب الإناث .. و تذكّر أن هذا التعميم يشمل بالضرورة أمك ، زوجتك ، أختك و ابنتك .. فهل تؤمن حقاً و أنت الأعرف بحنانهن ، إيمانهن ، حكمتهن و تفانيهن بأن هذه المقولة تنطبق عليهن ؟ و لماذا تغضب إن أهانهن ذكر آخر بنعتهن بها ؟

الأنثى ليست فحسب نصف البشرية بل هي من تحمل ، تلد ، ترضع و تربي النصفين معاً ، فكيف بالله عليكم ينيط الله بها هذه المسؤوليات الجمّة و هذا الشرف الكبير إن كنّ كما يعتقد البعض بجهالة (ناقصات عقل و دين) فعلاً .. **؟!!**

و بالتحليل المنطقي مع الأدلة العلمية ، الدينية و التاريخية فإن الأنثى كائن أسطوري جبار يعجز أي ذكر في هذا العالم عن مجاراته و تحمل الأعباء التي يتحملها في الحياة .. **فإن**

كان الذكر لديه عمل يشغله بالكامل في حياته فإنّ للأنثى أعمال كثيرة تحارب في كل ثانية من عمرها على جبهاتها جميعاً و تنتصر فيها كلها في أغلب الحالات كمعجزة ربانية حقيقية فرفاهية الذكر تكون بألا يعمل ، أما رفاهية الأنثى فتكون بأعمال البيت عادةً .. لذا لا نستغرب الحديث الشريف للرسول **محمد** الذي فضّل الأنثى على الذكر بمسافات ، فقال :

((أوصيك بأمك ثم أمك ثم أمك ، ثم أبوك))

فهل يوصي الرسول بناقصة عقل و دين و يفضلها على من يدعي لنفسه أنه العقل و الدين كله ؟!

مغالطة الأبناء و الآباء

(الابن يلد جدّيه)

= آباؤنا لا يُحتملون .. لقد خنقونا بطلباتهم .. هل هذا حب !!

= أولادنا غير معقولين .. لا يفكرون بمستقبلهم .. نريد لهم الأفضل و هم ينشغلون بتوافه الحياة ..

*****

هذه جمل اعتدنا على قولها في مراهقتنا عن آبائنا أو قولها عن أولادنا عندما كبرنا ، مما يكوّن شكل المغالطة التالية :

(**الآباء و الأبناء**) ، و كيف لأقوى علاقة ممكنة في التاريخ المترفعة عن أي بغض أو حقد أو حسد أو غيرة أو مصلحة كباقي علاقاتنا من أصدقاء أو معارف أو غرباء أو أعداء أو حتى أزواج أن تستحيل جفاءً كبيراً و تذمراً قد يصل إلى مرحلة الحقد و القطيعة في بعض الحالات .. كيف تبخرت حقيقة :

((**والداك هما الشخصان الوحيدان اللذان لا ينزعجان من موهبتك** .. **و الوحيدان اللذان يتمنيان رؤيتك أفضل منهم**))

من أدمغة الأبناء متى شارفوا على سن المراهقة ؟

و كيف تبعثرت كلمات المقولة الثابتة عند الآباء عن أطفالهم

و هم صغار :

((لا أريد شيئاً في هذه الحياة سوى رؤية أبنائي سعداء))

كذرات الغبار في الجو عندما كبر أبناؤهم فباتوا يطالبونهم بكل شيء حتى إن لم يتناسب مع مقدراتهم أو يتماشى مع ميولهم و جعلهم بؤساء طوال حياتهم ؟

في مقاربتنا لهذه المغالطة سنتطرق إليها من زاويتين ..

زاوية الأبناء أولاً .. ثم زاوية الآباء لاحقاً ..

◈ **زاوية الأبناء** و كيف تحولت إجابتهم في طفولتهم عن

سؤال (من هو أغلى شخص عليك ؟) من : (والداي بالطبع) و دون تفكير أو تردد إلى : (صديقي فلان أو حبيبي فلان أو مثلي الأعلى اللاعب فلان أو الممثل فلان) الذين لا تربطهم بهم أي علاقة دموية أو زمن طويل من التضحيات الاستثنائية و غير المشروطة كما هو الحال مع الوالدين ؟

فالجواب يشمل عدة أسباب سنتناولها تباعاً :

● جهل الأبناء فعلياً لمقدار تضحية الوالدين من أجلهم في طفولتهم ، كون فترة الطفولة مقترنة بقلة الوعي و بالتالي قلة التذكر أو فهم طبيعة و معنى التضحية ..

● انشغال الأبناء باللهو و اكتشاف ذواتهم و العالم من حولهم الذي يشغلهم عن تمييز تلك التضحيات أو الانتباه لها ..

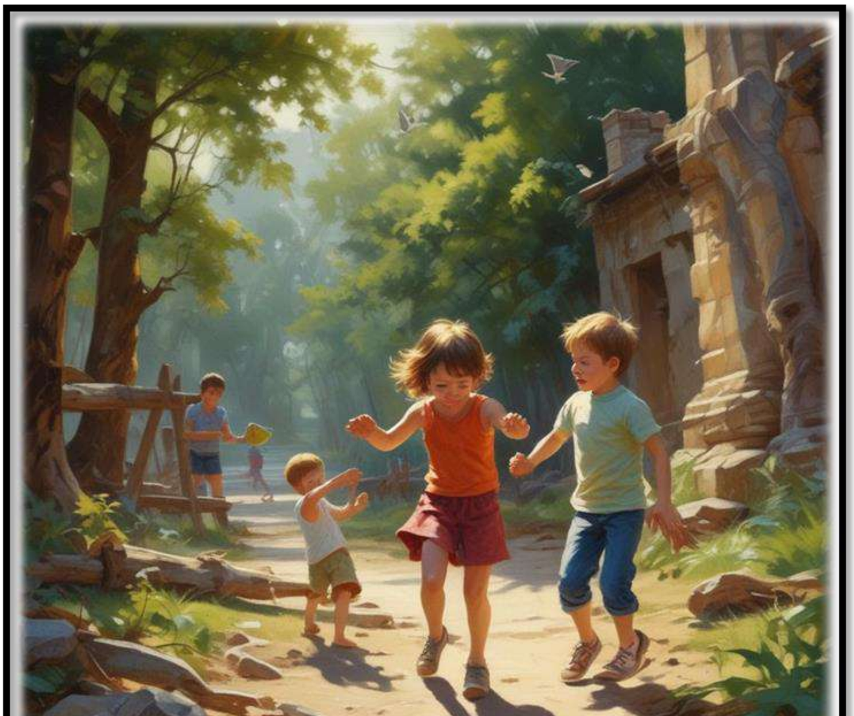

● الطفل لا يفهم بعد أن التضحية هي جهد زائد من قبل الإنسان على حساب سعادته ، وقته و راحته ، بل يعتبرها شيئاً بديهياً يقوم به الآباء بدون تعب و كما يقال :

((**لا قيمة لشيء في متناول اليد**))

و بالتالي كل شيء يحصل عليه الأبناء من آبائهم في الطفولة لا قيمة له بالنسبة لهم كونهم يمتلكونه بالفعل لاسيما مع رؤية الأبناء للهفة الآباء عليهم متى مرضوا أو تأذوا فيتشكل لديهم نوع من الابتزاز العاطفي الانعكاسي اللاواعي تجاههم للحصول على ما يريدون عبر البكاء أو ادعاء المرض كون الطفل لا يفهم معنى الابتزاز في جوهره و أنه سلوك سلبي ، بل مجرد سلوك نفسي انعكاسي للحصول على المكاسب ..

● مع تقدم سنوات الطفولة يبدأ الأطفال للأسف بمقارنة ما يقدمه آباؤهم لهم بما يقدمه آباء زملائهم و أصدقائهم لهم مع اختلاف الإمكانيات بالطبع ، فلا يهم الطفل أن والديه يقدمان دماء قلبيهما له .. بل يهمه أن صديقه فلان اشترى له والده دراجة أو أعطاه مبلغاً ضخماً من المال أو يطعمه أفضل أنواع المأكولات ... و هكذا ..

و مع اجتماع هذه العوامل جميعاً من عدم فهم مصطلح التضحية أو اللهو و الانشغال عن تمييزها إلى الابتزاز العاطفي أو مقارنة أنفسهم بأقرانهم يبدأ صدع خطير بالتشكل بين الأبناء و الآباء يتعمق مع مرور الزمن و تسلسل الأحداث ليتحول إلى هوة عميقة قد ينجم عنها الحقد و القطيعة ..

و للأسف لو يعي الأبناء حقيقة أن :

((**الحمى الخفيفة للأبناء بعد ولادتهم أصابت آباءهم بالشلل و الجنون و هرعوا بهم من طبيب لآخر كي يطمئنوا عليهم و يحافظوا على صحتهم ، و كانت إبرة الطبيب التي اخترقت جسدهم الغض قد اخترقت قلوب الآباء بنفس اللحظة، و أنهم**

سهروا الليالي الطوال كي ينام أبناؤهم .. كذلك فإنّ الدنيا على رحابتها لم تتسع لسعادة الآباء عندما مشى أبناؤهم خطواتهم الأولى أو لفظوا كلمتهم الأولى و غيرها من اللحظات الأولى التي صنعت منهم بشراً و التي يقف الوالدان خلفها كمسبب وحيد حقيقي لها))

لتعاملوا مع الأمور الأخرى الثانوية بطريقة مختلفة و لعرفوا

أن فضل الآباء لا يعوض بأي ثمن ، لذا قال الله تعالى :

(**و قل ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً**)

لأن الخالق يعلم جيداً مقدار صعوبة تربية الطفل عاطفيا و نفسياً و مادياً ..

◈ **زاوية الآباء** .. و كيف تحولت أمنيتهم الوحيدة في

الحياة (**رؤية أبنائهم سعداء**) إلى (**مطالبتهم بكل شيء ولو جعل ذلك منهم تعساء**) فنجد هنا ثلاثة أسباب أساسية لذلك :

❁ **السبب الأول** ، رغبة الآباء برؤية أبنائهم بالشكل الذي رغبوا أن يصلوا إليه في حياتهم ففشلوا في تحقيقه ، كحال الأب الذي أراد أن يصبح طبيباً فخانته الظروف أو الإمكانيات فأراد لابنه أن يكون كذلك .. و هلم جراً .. و لاشك أن هذا السبب ينطوي على أنانية حقيقية من قبل الآباء لا تراعي إمكانيات الطفل ، رغباته ، مواهبه و ميوله بل تفرض عليه قالباً قد لا يتناسب معه كمن يحاول وضع دائرة في قالب مثلثي الشكل لا يتطابق معها .. و للأسف في حالات كثيرة يحاول الآباء وضع أبنائهم بالقوة في قوالبهم المرغوبة مما ينتج عنه كسر شخصية الأبناء و تحطم نفسيتهم التي تتكون للتو في المراهقة مما يشكل تشوهاً خطيرا يترجم لاحقاً إلى اضطرابات الشخصية بأنواعها

المختلفة ..

متناسين مقولة السيد المسيح الشهيرة و المنطقية للغاية :

((**أولادكم ليسوا لكم أولادكم أبناء الحياة**))

أي أن لكل جيل من الحياة توجهاته ، اهتماماته و صفاته النوعية الخاصة التي يتوجب على الآباء مراعاتها بحرص و اهتمام شديدين ..

❁ **السبب الثاني** ، قناعة الآباء أن أبناءهم بسبب عمرهم الصغير و قلة خبرتهم في الحياة يجهلون ما هو مناسب لهم

و في مصلحتهم .. للأسف بسبب منطقية هذا السبب يصر الآباء على أبنائهم أن يلتزموا بنصائحهم لهم ويسلكوا طريق الحياة الذي اختاروه لهم ..

۞ **السبب الثالث** ، قائم على المشاعر الإنسانية السلبية و بالتحديد الغيرة من أبناء الآخرين مع شعورهم بالنقص أو التخلف إن عجزوا عن مجاراتهم .. كمثل الآباء الذين يقولون لأبنائهم (انظروا ابن فلان أصبح مهندساً ، أو ابنة فلان حققت المرتبة الأولى ، أو ابن فلانة أصبح مشهوراً ، فماذا ينقصكم كي تصبحوا مثلهم) متغافلين عن حقيقتين غاية في الأهمية :

- **الأولى** : أن إمكانيات أبنائهم أو ميولهم قد تكون مختلفة عن أبناء زملائهم أو معارفهم ..

- **الثانية** : أن أبناءهم بدورهم يملكون هبات و مواهب مادية أو معنوية خصهم الله بها لا يملكها أبناء الآخرين و يعجزون عن تقليدها أو مجاراتها ، و الأحرى بالآباء هنا تنمية ثقة أبنائهم بأنفسهم و تنمية مواهبهم و تشجيعهم على تعزيز هباتهم الخاصة كي يتميزوا بدورهم في الحياة محافظين على سلامتهم النفسية و تقديرهم لذواتهم و تجنيبهم مشاعر النقص ، الإحباط و الدونية تجاه أبناء الآخرين مما يقضي على سعادتهم (مطلب الآباء الأول عند ولادة أبنائهم) و الأخطر على مستقبلهم المشرق الزاهي الذي كان من

الممكن أن ينتظرهم لو دعموهم و شجعوهم ..

و الأهم الآن بعد مقاربة الجانبين السابقين الخاصين بالأبناء و الآباء هو التطرق إلى **الحدث العظيم** في حياة الأبناء الذي يقلب الموازين فيصحح مسار العلاقة مع الآباء و هو إنجاب الأبناء لأحفاد الآباء .. فهنا بالضبط و مع أول مشاعر من الحب الهائل غير المشروط تجاه الأبناء الجدد سيفهم الأبناء كيف شعر الآباء تجاههم عندما ولدوا .. و مع مراقبة أطفالهم يكبرون يعي الأبناء أكثر مقدار تضحية الآباء تجاههم فتبدأ العلاقة معهم بالتقويم .. أما الأهم فهو عندما يصل الأبناء إلى سن المراهقة حين يبدأ الآباء بتمييز الأسباب التي تقف خلف إصرار آبائهم على تحديد خط حياتهم و حدود مستقبلهم من دافع الخوف عليهم في هذه الحياة القاسية و في بعض الأحيان يستفيد الأبناء من تجاربهم الخاصة فيتجنبون التدخل في الشؤون الخاصة للغاية لأبنائهم ، لكن للأسف يقع كثيرون في نفس الفخ الذي وقع فيه آباؤهم و يعيد الزمن دورته المؤلمة مجدداً .. لكن ذلك لا يعني في جميع الأحوال أن الأبناء و بعد إنجاب أطفالهم بقوا لا يقدرون تضحيات آبائهم الهائلة تجاههم ليعيدوا رسم نظرتهم لهم و كأنهم ولدوا من جديد فتلتئم الجراح و الكسور التي حدثت في سن المراهقة و توصل حبال القطيعة مجدداً ..

بحيث يمكننا القول بأن **الأحفاد ينجبون الأجداد مجدداً**

في عيون الأبناء و هنا يبتسم القدر منتصراً كأهم حدث في حياة البشر .. حدث رؤية ما غفلوا عنه في طفولتهم و فهم دورة الحياة المستمرة من آباء يضحون في سبيل أبنائهم بدون شرط أو مقابل .. فإذا سألت الأبناء مجدداً من أغلى الناس عليك سيقولون (آباؤنا و أطفالنا) بلا تفكير أو تردد ليعودوا ثانيةً إلى جذور قناعاتهم في طفولتهم ..

و هناك مقولة شائعة ملهمة تلخص هذه الدورة المقدسة للحياة بأبهى صورة :

((وأنا عمري **4** أعوام : أبي هو الأفضل.

وأنا عمري **6** أعوام : أبي يعرف كل الناس.

وأنا عمري **10** أعوام : أبي ممتاز ولكن خلقه ضيق.

وأنا عمري **12** عاما : أبي كان لطيفا عندما كنت صغيرا.

وأنا عمري **14** عاما : أبي بدأ يصبح حساسا جدا.

وأنا عمري **16** عاما : أبي لا يمكن أن يتماشى مع العصر الحالي.

وأنا عمري **18** عاما : أبي ومع مرور كل يوم يبدو كأنه أكثر حدة.

وأنا عمري **20** عاما : من الصعب جدا أن أسامح أبي ، أستغرب كيف استطاعت أمي أن تتحمله.

وأنا عمري **25** عاما : أبي يعترض على كل موضوع.

وأنا عمري **30** عاما : من الصعب جدا أن أتفق مع أبي ، هل يا ترى تعب جدي مع أبي عندما كان شابا.

وأنا عمري **35** عاما : أبي رباني في هذه الحياة مع كثير من الضوابط ، ولابد أن أفعل نفس الشيء مع أبنائي.

وأنا عمري **40** عاما : أنا محتار كيف استطاع أبي أن يربينا جميعا.

وأنا عمري **45** عاما : من الصعب التحكم في أطفالي ، كم تكبد أبي من عناء في سبيل تربيتنا و المحافظة علينا.

وأنا عمري **50** عاما : أبي كان ذو نظرة بعيدة فخطّط لعدة أشياء لنا ، أبي كان مميزا ولطيفاً ، وهو الأفضل !!

كل ما سبق احتاج إلى **50** عاما لإنهاء الدورة كاملة فيعود إلى نقطة البدء الأولى عند الـ **4** أعوام (**أبي هو الأفضل**)

و هذا ما ينطبق على الأمهات أيضاً ..))

*****

في ختام تحليل هذه المغالطة المؤلمة في الحياة مغالطة :

(**الآباء و الأبناء**) من الأنسب بعد الآن ألا نقول :

= والداي لا يطاقان فهما يتدخلان بأدق تفاصيل حياتي ..

بل نقول :

= والداي أحباني منذ ثواني حياتي الأولى بشكل لا يوصف

ثم قدموا سلسلة من التضحيات الهائلة لأجلي من وقتهم ، راحتهم و سعادتهم بدون شروط أو مقابل على خلاف بقية الناس .. كما قدموا ما يفوق طاقتهم بغضّ النظر عما يقدمه آباء الأطفال الآخرين لهم ..

و أنتم أيها الآباء ألا تقولوا بعد الآن :

= أبناؤنا عاقون و منشغلون بتوافه الحياة عن مستقبلهم المضمون الذي نرسمه لهم .. في حين أبناء معارفنا أفضل منهم و بارّون أكثر بآبائهم ..

بل تقولوا :

= أولادنا أبناء الحياة و جيلهم يختلف عن جيلنا .. كما أنّ لديهم هبات فريدة يفتقر لها أي أبناء آخرين ، لذا سننميها و نسقيها كي تنبت من بذرتها شجرة مثمرة تؤتي أكلها لأبنائنا طوال حياتهم كي يبقوا سعداء حتى النهاية ..

مقاربة هذه المغالطة محاولة **لإغلاق الدائرة المقدسة**

للحياة مبكراً و تجنب تشكل الشرخ بين الأبناء و الآباء في سن المراهقة و الذي قد يكبر و ينتج عنه قطيعة و حقد بينهم أو الأخطر اضطرابات نفسية و شخصية عند الأبناء قد تدمر حياتهم تماماً و تجعلهم تعساء للأبد على خلاف ما يتمناه الآباء بشكل أكيد و قطعي ..

مغالطة الجنس

(اللهاث وراء السراب)

= إنه فحل حقيقي .. كازانوفا .. زير نساء قل نظيره و مثيله .. مغناطيس حقيقي يجذب إليه الإناث كما يجذب النور الفراشات ..

= إنها مثال عن الأنثى الساحرة .. فكل ما فيها من وجه و قوام يغري أشد الرجال صرامة .. الذكور يقفون طوابير لمواعدتها .. أتمنى كأنثى أن أحصل على ربع جاذبيتها ..

*****

هذه المقولات تختصر التفكير الشائع و السائد للناس عن الجاذبية و القوة الجنسية .. للأسف هي واقع حقيقي نعيشه يمجّد الجنس بحد ذاته و يعتبره مديحاً و إطراءً على الآخرين .. بل حتى دافعاً للغيرة بينهم .. و كل ما ينتشر

اليوم في وسائل الإعلام من إعلانات ، أفلام ، مسلسلات و أغانٍ يروّج لهذا المفهوم و يقوم بعملية غسيل دماغ شاملة للأطفال و المراهقين للابتعاد عن القيم السامية و المبادئ النبيلة في تقييم و تصنيف البشر مع استبدالها باهتمام مفرط بالجنس يحتل أغلب عقول تلك الفئة فيجعلها تلهث وراء شيء وحيد هو في الحقيقة سراب وهمي لا وجود له .. و هنا تنبثق مغالطتنا الجديدة .. مغالطة **الجنس** .. و سؤالها الجوهري التالي :

((**هل الجنس حقيقةً هو فن و موهبة تمتلكه فئة قليلة من الناس .. و هل المتعة الجنسية هي بالفعل ذروة المتع بكافة أطيافها الجسدية ، العقلية و النفسية .. أم أنها عبارة عن عضلات كاذبة أشبعت حقناً بستيروئيدات الإعلام و الأعراف فتضخمت على نحوٍ زائف لتشغل عقول الشباب على خلفية أرباح اقتصادية أو غايات سياسية ممنهجة تهدف إلأى تدمير عقولهم و إشغالهم بترهات و توافه تبعدهم عن القيم السامية التي تصنع منهم بشراً صالحين كما تصنع من الأوطان دولاً متطورة و مستقلة** ..))

الجواب المبسط الوجيز على هذه الأسئلة هو :

((**الجنس في الحقيقة أحد أكبر أوهام الحياة ، سراب يلهث وراءه الشباب ليكتشفوا في شيخوختهم أنه غير موجود على أرض الواقع بل أفنوا سنين عمرهم الغالية بالتفكير به، هو في وقتنا الراهن حصان طروادة الذي يغلّف بثوب برّاق كي يدخل عقول الشباب ثم يتسلل منه جنود الإدمان و الإغواء كي يدمروا عقولهم و أرواحهم**))

و لكي نفسر إجابتنا أكثر ، سنقوم بمقاربة مفهوم الجنس من أربع زوايا :

❁ **الزاوية الأولى** : **تعريف الجنس** ، ببساطة شديدة الجنس هو حالة من فقدان التوازن و السيطرة على الجسد بسبب طاقة متولدة زائدة تدفعنا لتفريغ هذه الطاقة كي نعود إلى الوضع الأول الأساسي .. تماماً كالمرض الذي يزعزع استقرار الجسد فنعالجه ليعود الجسد إلى وضعه الصحي السليم .. و لا يخفى عنا جميعاً أن شعورنا بمتعة النقاهة بعد التعافي من المرض يختلط بقوة مع شعورنا بعد ممارسة الجنس .. فالجنس هو بحد ذاته علاج لحالة غير طبيعية للجسد كي يعود لوضعه السابق .. و يحضرني هنا مثل شعبي عربي طريف يقول :

((**إن الله إذا أراد إسعاد الفقير ، جعله يفقد حماره ثم يجده مجدداً**))

و هذا المثل ينطبق تماماً على مفهوم الجنس ، فالفقير هنا لم يحصل على مكسب جديد كما لم يطرأ تغير سارّ على حياته بل مجرد أن فقد حماره فحزن ثم وجده ففرح .. و هذه هي حالة الجنس بالضبط إذ يفقد الجسد توازنه فيرتبك ثم يعود إلى وضعه الأول فيرتاح ..

❁ **الزاوية الثانية** : **التحليل النفسي للجنس** ، تفسير الجنس من الناحية النفسية يمكن تلخيصه بمثل شعبي عربي آخر و ما أكثر الحكم و الأمثال كخلاصة لتجارب الشعوب ،

و يقول ذلك المثل :

((كل ممنوع مرغوب))

و هذه العبارة على بساطتها تفسر الكثير عن موضوع الجنس .. فعندما يزرع البشر في أذهان الطفل منذ نعومة أظافره أن الجنس أمر محرّم من نواحٍ كثيرة و لا يجوز ممارسته إلا في أطر صارمة محددة .. و بأن رؤية الأعضاء التناسلية للبشر الآخرين هو عيب و حرام رغم كونها أعضاء لا تختلف عن غيرها كالأذن ، الأنف أو العين ، فإننا بذلك نمنع الفاكهة المحرمة عن الطفل الذي هو بالأساس يتعلق أكثر بالشيء كلما حرمته منه ، فيتولد عند الطفل رغبة دفينة جارفة برؤية الأعضاء المحجوبة عن العين لا سيما أعضاء الجنس المغاير مما يخلق لديه حالة من عدم التوازن عند رؤيتها في مراهقته تدفعه لممارسة الجنس معها كي يعيد توازنه مجدداً ..

و هنالك مثالان معروفان يعززان هذه الخلفية النفسية للجنس و يؤكدانها ..

- <u>المثال الأول :</u> قصة آدم و حواء و كيف نهاهما الله عن أكل ثمار شجرة التفاح مقابل الحصول على الجنة برحابتها تحت تصرفهما .. لكن منعهما هذا ولّد لديهما رغبة جارفة في تناول ثمرة منها مضحيين بالجنة برمتها مقابل ذلك .. كالطفل الذي يملك غرفة مليئة بالألعاب ، لكنه يفقد اهتمامه

بها كلها و يريد اللعب باللعبة التي في يد الطفل الآخر .. و لا يخفى عنا جميعاً كيف اقترنت قصة آدم و حواء و شجرة التفاح ببدء ظهور الغريزة الجنسية كما ذكر القرآن الكريم ..

((**فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما و طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة**))

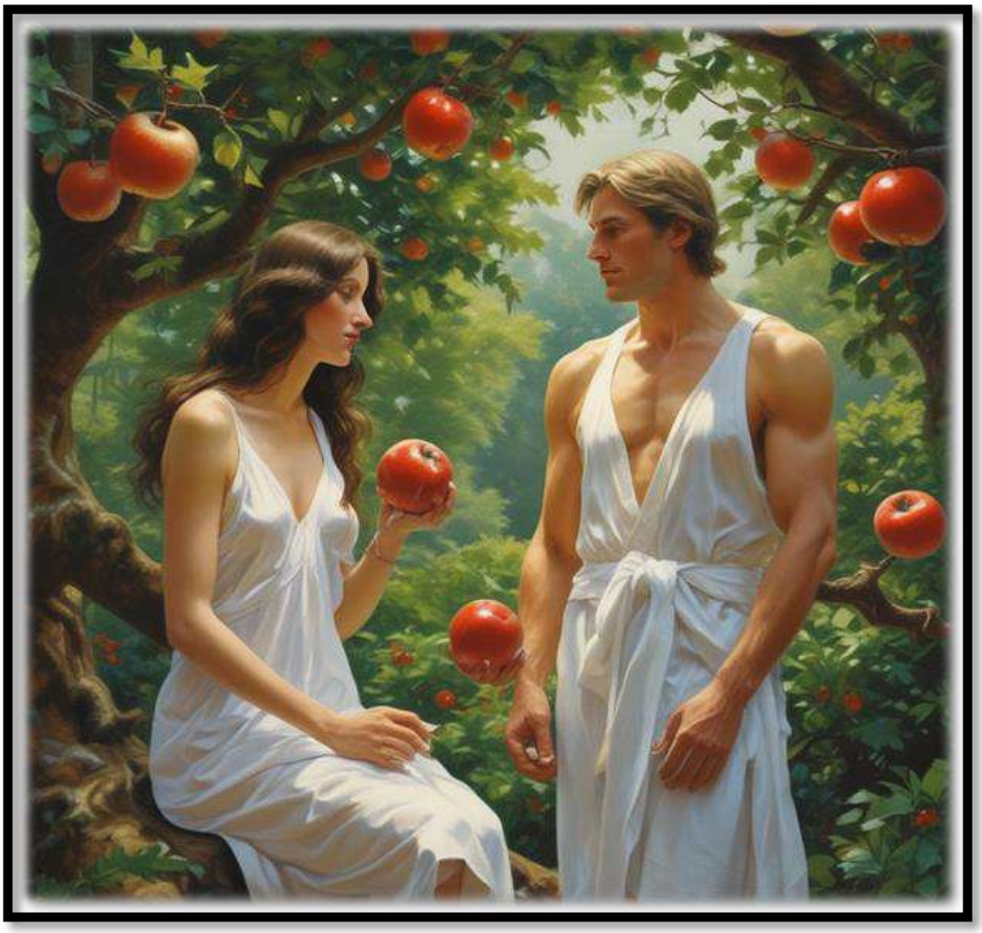

و هذا يعود بنا إلى المثل الشعبي كل ممنوع مرغوب فمنع شجرة التفاح عن آدم و حواء جعلها جلّ مرادهما في الجنّة على وسعها .. و هنا يحضرني قول الأديب الفرنسي **ميلان كونديرا :**

((أتذكر أسطورة أفلاطون الشهيرة (المأدبة) : في السابق كان البشر مزدوجي الجنس فقسّمهم الله إلى أنصاف تهيم عبر العالم مفتشة بعضها عن بعض ، الحب هو تلك الرغبة في إيجاد النصف الآخر المفقود من أنفسنا))

و هذا ينطبق على مثال آدم و حواء قبل تناول ثمرة التفاح فقد كانوا بلا جنس محدد ثم تمايزوا إلى جنسين يبحثان عن بعضهما ..

- **المثال الثاني** : و هو بعض القبائل البدائية حول العالم التي اعتاد أفرادها العيش عراة منذ طفولتهم فاعتادوا على ذلك و لم يعودوا يرون ذلك غريباً ، عيباً ، محرماً أو حتى مثيراً في أغلب الأوقات .. إذاً الموضوع برمته نفسي بحت خلق في أذهاننا منذ الطفولة و بدأ يغزو و يتسلق أدمغتنا كسرّ خطير إن حصلنا عليه كان إنجازاً عظيماً كما لو كنا نأكل ثمرة التفاح في الجنة مجدداً ..

و لا يخفى عن أغلبنا أنه بعد سنوات قليلة من الزواج و ممارسة الجنس بدون أطر أو موانع و الاعتياد على رؤية أجساد بعضنا عراة تخف أهمية الجنس كثيراً في نفوسنا و هذا ما يفسر فتور العلاقات الحميمة بعد الزواج بسنوات و بحث بعض الشركاء عن أجساد جديدة كنوع من الخيانة كي تثير فيهم الرغبة من جديد ..

❁ **الزاوية الثالثة** : **غاية الخالق من إيجاد الجنس** ، و هذه الزاوية هي تفسير للزاوية السابقة .. فالله خلق فينا الغريزة منذ طفولتنا عبر الحرمان من الجنس و تأطيرها بسياج من الألغام كي يدفعنا في شبابنا إليه بشدّة كنوع من التكاثر و حفظ النسل بشكل أساسي .. لأنّ تكوين العائلة مسؤولية كما أنّ تربية الأطفال عملية منهكة و مزمنة ، و لولا أن جعل الله الجنس بهذه السرية و الغموض التي تدفع البشر إلى ممارسته لعزف أغلبهم عن الزواج تجنباً لهذه المسؤولية ، دون أن يغفل الله في قرآنه عن ذكر حقيقة الجنس و التكاثر كوهم و سراب يستهلك حياتنا كما يستنزف أفكارنا و أوقاتنا عندما قال :

((**ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر**))

و هنا نجد بشكل مثير أن الله قرن مفهوم الجنس بمفهوم التكاثر مؤكداً على غايته الحقيقية منه و أن الأول وجد من أجل الثاني في الأساس .. لكن الناس أدمنوا الأول بسبب العقد النفسية العميقة في الطفولة و المراهقة بخصوصه و بسبب الحرمان منه ، ناهيك عن تغليفه من قبل البشر بتلك الهالة البراقة التي تجعل من ممارسة الجنس فتحاً عظيماً و انتصاراً هائلاً في حياتهم .. غافلين عن الحقيقة المرة بأن **الحيوانات نفسها تمارس الجنس و تتكاثر بل أكثر من ذلك تمارسه بتواتر أكبر و تملك أعضاء جنسية أكبر و أكثر تعقيداً من الإنسان المغرور بنفسه** .. فبالله عليك أيها الإنسان كيف تتفاخر بممارسة شيء تفعله الحيوانات ذات الأدمغة الأقل تطوراً.. هل تسمي ذلك انتصاراً و حدثاً جللاً تتفاخر به أمام الآخرين ؟!

❁ الزاوية الرابعة : كيف نجح الإعلام في الترويج للجنس كأحد أهم نواحي الحياة ، و كيف استطاع غزو

أدمغة المراهقين و الشباب بفكرة وحدانية الجنس في ذروة سلّم اهتماماتهم .. و الحقيقة أن ذلك تم ببساطة عبر وسيلتين هامتين :

- **الأولى** : المواقع الإباحية و المشاهد الإباحية في المسلسلات و الأفلام ، إنّ حجر الزاوية في ذلك هو إظهار الممثلين بأنهم يشعرون بمتعة هائلة بممارستهم للجنس، مع ربط الممارسات الشاذة التي يقومون بها بمتع خيالية تدفع

الشباب لتجريبها و كشف حقيقتها و غموضها ، و أخيراً تصوير العملية الجنسية كممارسة طويلة تغدق عليك من السعادة و المتعة .. علماً أنه و بالحقيقة العلمية المثبتة تنتهي المتعة الجنسية بعملية الإيغاف أو النشوة التي لا تصمد في الممارسة الفعلية سوى فترة قصيرة .. و حتى مع استخدام المقويات الجنسية كالحبوب الزرقاء مثلاً لا تعدو ممارسة الجنس بعد الإيغاف أكثر من عملية ميكانيكية بمتعة واهية لا تذكر ..

● **الثانية** : تصوير الأشخاص الذين يمارسون العلاقات الجنسية بكثرة و مع شركاء جنسيين مختلفين كأبطال خارقين و تمرير الجنس بهذه الطريقة كصفة عظيمة في الإنسان حالها حال العبقرية ، الكرم ، القوة الجسدية ، النزاهة و الشرف بل أكثر منها كلها في كثير من الأحيان ، و باعتبار أن المراهق شخص ضعيف الشخصية ، قليل الثقة بنفسه و يتأثر بشكل هائل بأبطال الأفلام و المسلسلات ..

يتولد لديه قناعة بأن ذلك صحيح و بأنه من مبدأ تقليد الأبطال و محاكاتهم سيمارس الجنس بكثرة و مع العديد من الشركاء ليس من أجل الجنس كمتعة كبيرة فهو يعي بتجربته الشخصية أنه ليس كذلك بل لتعزيز الفكرة الشائعة في المجتمع من خلال الإعلام بأنه بطل كما أوردنا في أول مثال في هذه المغالطة بأنه كازنوفا أو زير نساء أو أنها آلة جاذبية يقف الرجال بالطوابير لمواعدتها ..

و غاية الإعلام من ترسيخ هذه القناعة في المجتمع هي مزدوجة الطبيعة :

- **أولاً** : غاية تجارية بحتة ، بحصد الأرباح المالية من مشاهدات الشعب لأعمالهم ..
- **ثانياً** : و هو الأخطر ، كغزو ثقافي للشعوب الأخرى خاصةً المحافظة منها لزلزلة مبادئها و قيمها السامية و تكريس انحلال الأخلاق بين مراهقيها و شبابها بالخصوص و إشغال عقولهم بالجنس الذي حرموا منه بدلاً من إشغالها بالعلم ، الأخلاق و تطوير الذات السامية و النبيلة ..

يتبقى لدينا الآن سؤال غاية في الأهمية هو :

((**هل الجنس و الحب و جهان لعملة واحدة** ؟))

و الجواب باختصار :

((**على الإطلاق**))

فالجنس غريزة بشرية تجاه أي شخص آخر أياً كان جنسه وليدة عقدة نفسية من الطفولة نريد حلها بممارسة الجنس عندما نكبر ، و عندما نمارسها بشكل متكرر ندرك أنها كانت سراباً و وهماً كبيراً زُرع في اذهاننا أطفالاً .. و هذا يفسر الخلافات الزوجية العميقة و حالات الطلاق و الخيانة الهائلة بين الأزواج بعد سنوات قليلة من الزواج ..

أما الحب فهو شعور سامي لا علاقة له بالجنس قد يكون تجاه أفراد عائلتك من زوج أو زوجة ، جد أو جدة ، أب أو أم ، أخ أو أخت ، ابن أو ابنة ، حفيد أو حفيدة .. و غيرهم أو تجاه صديق أو فكرة أو كائن حي آخر أو حتى جماد وصولاً إلى الذات الإلهية نفسها و ذلك أسمى أشكال الحب ((الحب الصوفي)) الذي تسكره فقط الخمرة الإلهية ..

*****

في ختام مقاربة هذه المغالطة الهامة في حياتنا (**الجنس**)
التي تشغل حيزاً هاماً من عقول شبابنا ، من الأنسب بعد الآن ألا نقول :

= أريد أن أصبح زير نساء أو تحفة إغواء ..

بل أن نقول :

= أريد أن أنمّي في نفسي القيم و المبادئ السامية النبيلة فهي

زادي للدار الآخرة و ثروتي التي تدوم للأبد أما الجنس فمتعة زائفة مؤقتة ستنطفئ مع شيخوختي و لن يبقى منها سوى الحسرة من ملاحقة سراب غير موجود و اللهاث وراءه خاسراً وقتي الثمين و شبابي الذي لا يعوض ..

و ألا نقول :

= مثلي الأعلى في هذه الحياة هو الفنان أو المطرب فلان فهو كازنوفا أو هي مضرب مثل في الإغراء و الجاذبية ..
بل أن نقول :

= مثلي الأعلى هو أبي أو أمي أو النبي ذاك أو العالمة الشهيرة تلك ..

و ألا نقول :

= أنا على أحر من الجمر لأتزوج كي أمارس الجنس و أثبت رجولتي و فحولتي ..

بل أن نقول :

= أريد الزواج من شخص أحبه لأنجب أبناء أحبهم و أكوّن ذكريات عظيمة و رائعة معهم و أكون مثلاً و قدوة لهم في الحياة ..

لا تجعل حصان طروادة الإعلامي الإباحي يغزو حياتك فجلّ همّه الربح المالي أو تسميم عقلك .. تحرر كذلك من عقد الطفولة الجنسية بأن تدرك بأن الجنس ما هو سوى اختلال توازن لدقائق سيعود بعدها إلى وضعه السابق ، و أن الأعضاء الجنسية ما هي سوى أعضاء كغيرها في الجسم و أفضل تسمية لها (الأعضاء التناسلية) فغايتها الأساسية هي التناسل و التكاثر لحفظ الجنس البشري و تزويد الأرواح الهائمة في ملكوت الله بأجساد جديدة تدخلها و تذوب فيها كما يذوب الملح في البحر ..

و أخيراً تذكر أن غريزتك الجنسية ستنطفئ ذات يوم في شيخوختك و لن يبقى لك من عمرك سوى ما حصلته من علم و ما تركته من إرث أخلاقي صالح بين الناس من حولك .. فأحسن خاتمتك ..

مغالطة الانتماء

(الجنسية كونيّ)

= لقد انتصرنا .. ريال مدريد الأقوى ..

= بل برشلونة الأفضل .. أيها الأغبياء المحظوظون ..

= نحن أغبياء يا ضعفاء .. سنريكم من هو القوي الآن ..

و هكذا ثار شجار عنيف في المقهى بين مشجعي فريقي ريال مدريد و برشلونة الإسبانيين في إحدى الدول الآسيوية التي لا علاقة لها بإسبانيا لا من قريب و لا من بعيد ، لا تاريخيا ، لا جغرافياً و لا سياسياً .. نتجت عنه حالات نزيف و كسور و تخريب مرافق عامة .. عداك عن الحقد و القطيعة بين أصدقاء العمر ..

*****

الشجار السابق يحمل في رحمه جنين مغالطتنا الجديدة التي ستتم مقاربتها بشكل وجيز لكن كافٍ كما أتمنى و هي **مغالطة الانتماء** .. و سؤالها الأهم هو :

((كيف يمكن لشخص أو مجموعة أن تنتمي لجهة لا تمت لها بأي صلة دموية أو اجتماعية أو عرقية أو سياسية أو دينية أو فكرية ؟ و تصل إلى درجة الخلاف و الصراع الدموي لأجلها !! علماً أن الصلات السابقة هي التي تفترض علمياً و منطقياً الانتماء ..

ما السبب الدفين الخفي وراء انقياد البشر للانتماء إلى جهات غريبة بالكامل عنهم و ما مصلحتهم في ذلك ؟))

و الجواب المبسط الوجيز و الأولي هو :

((**الانتماء ليس شكلاً من أشكال الوفاء للجهة التي ننتمي إليها ، بل تطويع تلك الجهة لمصلحتنا كي تمنحنا التميز و الحماية و الانتصار**))

و لكي نشرح معنى هذه المقولة أكثر سنقوم بمقاربة موضوع الانتماء عبر محورين رئيسيين :

❁ **الأول : السياسة الفردية** ، و هي غالباً ما تظهر عند

الشخص في مرحلة المراهقة ثم تخف تدريجياً مع التقدم بالعمر كالانتماء إلى مطرب معين أو ممثل محدد أو فريق رياضي بعينه كما ذكرنا في المثال الأول عن الفريقين الإسبانيين ..

و الغاية من هذه السياسة الفردية مزدوجة :

- **التميز و رسم حدود الشخصية الخاصة بالمراهق** ، إذ يصبح هنالك مجموعة أمور خاصة به ينتمي إليها تميزه عن أقرانه ..

- **الشعور بالانتصار الشخصي و إثبات الوجود** ، و هو شعور إيجابي هائل و حاجة نفسية هامة للمراهق .. كنجاح مطربه أو ممثله المفضل ، أو انتصار فريقه الرياضي على سبيل المثال إذ ينسب المراهق هذا النجاح و الانتصار إلى نفسه على نحو وهمي و زائف باعتبار أن من نجح و انتصر هو الجهة التي اختارها و انتمى إليها و باتت تمثله من وجهة نظره ..

❁ **الثاني ، السياسة الجماعية** ، وهي غالباً ما تظهر مع التقدم بالعمر أكثر ، كالانتماء إلى دين محدد أو عرق معين أو منطقة جغرافية بذاتها ..

و الغاية من هذه السياسة الجماعية مزدوجة أيضاً :

- **الاطمئنان و راحة البال ، عبر سياسة القطيع** .. و هو عامل غريزي بامتياز نجده أيضاً عند الحيوانات التي تمشي

في قطعان أو أسراب كالخراف و الغزلان و الطيور ، الأمر الذي يمنحها قوة المجموعة و الشعور بالأمان و التعاضد .. لذا نجد هنا أن من يخرج عن سياسة القطيع هذه يعامل بقسوة كعدو حقيقي لأنه يزلزل الأركان النفسية للقطيع و مبادئه .. و كأنه يرمي حجراً في مستنقع الأعراف الراكد مما يثير نوعاً من الاضطراب فيه يزعزع راحة بال القطيع التي اعتاد عليها ، و مثال على ذلك الفلاسفة و العلماء الذين أتوا بفكر جديد يخالف ما هو معتاد فتعرضوا للعنف و أحياناً القتل أمثال الفيلسوف **سقراط** الذي زلزل أركان الانتماء الإغريقي إلى الآلهة المعروفة فأسقوه السم و مات ، أيضاً نجد العالم الإيطالي **غاليلو غاليلي** الذي سجن حتى الموت بسبب نظرياته العلمية الفلكية التي شككت بكون الأرض مركز الكون مما أثار غضب الكنيسة و زعزع انتماء الناس لها و لأفكارها فتخلصوا منه على الفور ..

● **الحماية و الدفاع عن النفس عبر العقيدة العسكرية ..**

كما تفعل دول العالم قاطبةً بتعزيز الانتماء الوطني لشعوبها و الوصول بهم إلى درجة الانتماء المقدس العقائدي الذي يدفع الشعب إلى الموت في سبيل الوطن ، وذلك من أجل تجهيز جيش مستعد لرد أي عدوان عن ذلك الوطن من أي جهة خارجية أو دفعه لاحتلال دول أخرى من أجل توسع الوطن و زيادة نفوذه ، ثرواته و مجده ..

هذا فيما يتعلق بالخلفية النفسية للانتماء بأشكاله الفردية و الجماعية .. و السؤال الهام هنا :

((**هل الانتماء هو شعور حقيقي ، منطقي و**

صحيح ، و من واجب الأفراد التمسك به و

الانقياد الأعمى له ؟؟))

و الجواب هو ببساطة :

((**أبداً .. الانتماء حالة وهمية تحركها المصلحة الشخصية الفردية أو الجماعية كما ذكرنا آنفاً**))

و سنفسر ذلك بشكل أعمق بتناول أشكال الانتماء تباعاً :

① **الانتماء الشخصي** : و هو كما ذكرنا يتشكل مع سن المراهقة كطريقة لبناء الشخصية و رسم حدودها ، و ليس من الصعب إدراك أنه انتماء وهمي لا عقلاني لجهة لا تربط الفرد بها أي صلة أو علاقة .. (غالبا انتماء لفريق رياضي أو جهة فنية)

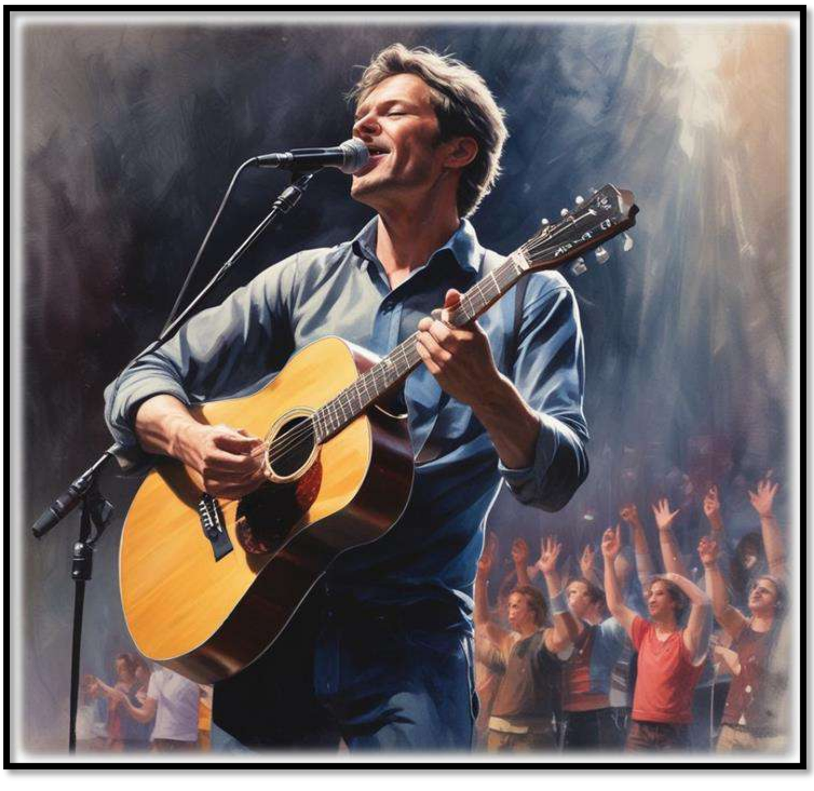

② **الانتماء الجغرافي** : الذي بدأ منذ القدم بالانتماء إلى القبيلة ثم توسع إلى المدينة أو القرية فالدولة و أخيراً القارة .. و هو بدوره انتماء وهمي بدليل بسيط أن الدول الحالية بحدودها الراهنة هي صنيعة استعمارية أو ظرفية بحتة و كمثال واضح على **الصنيعة الاستعمارية** نتذكر أن بلاد الشام كانت انتماءً لكل شامي يعيش فيها قبل أن تتقسم باتفاقية سايكس بيكو إلى عدة دول (سوريا ، لبنان ، فلسطين و الأردن) فإذا حدث و نشبت حرب بين هذه الدول ، كيف ستقاتل شعوبها بعضها دفاعاً عن وطن افتراضي بديل لوطن سابق جمعها معاً لفترة طويلة من الزمن .. و هذا ما ينطبق أيضاً على دول الاتحاد السوفييتي الذي تفكك .. و كمثال على **الصنيعة الظرفية** ، نذكر مثال **الأندلس** ، فكيف سينتمي شخص إلى بلد هو بالأساس ليس له بل دخيل عليه ظرفياً ، أو المهاجر من بلده الأم إلى بلد جديد ، كيف سيدافع عن البلد الجديد و هو أساساً ليس ببلده كيف يتغير ولاؤه ببساطة ظرفياً ؟!.. هكذا نجد أنّ الانتماء الجغرافي مجرد وهم استعماري أو ظرفي غالباً ما تكون غايته عسكرية بحتة بالدفاع عن الرقعة الجغرافية أو التوسع إلى رقعة أكبر .. و يجدر التنويه إلى وجود بلدان تحكمها جماعات و أحزاب متعددة كل منها ينتمي لجهة جغرافية أخرى مما يجعل مفهوم الانتماء الجغرافي يتبدد أكثر ..

③ **الانتماء الفكري** : و هو الانتماء لتوجه سياسي أو

اجتماعي أو اقتصادي معين كالرأسمالية أو الاشتراكية أو الليبرالية .. و غالباً ما يصل هذا الانتماء لدرجة التعصب الأعمى و يكون سبباً في الانقلابات و الثورات .. و هو بدوره انتماء وهمي بشكل فاضح إذ يستحيل على أي فكر سياسي أن يكون صحيحاً بالمطلق أو مناسباً لجميع الشعوب باختلاف ظروفها ، عاداتها و تقاليدها .. و غالباً ما يقع أصحاب هذا الانتماء في مغالطة أخرى لا تقل خطورة عن مغالطة الانتماء و هي مغالطة الشمولية و التعميم .. كقول البعض (الشيوعية هي الحل للعالم) أو (الرأسمالية هي الفكر الصحيح) أو (الليبرالية هي ذروة النضوج البشري)

و تحضرني هنا مقولة **مارك توين** الشهيرة :

((**كل تعميم خاطئ حتى هذا التعميم**))

و مقولة **شكسبير** :

((**لا يعمم إلا الجهلاء**))

فالأحرى بالبشر أن يدعموا توجهاً سياسياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً بشكل جزئي في مكان محدد و زمان معين .. لا أن يدعموه بشكل شامل و مطلق مقتنعين بجهل أنه يصلح لكل زمان و مكان .. إذ أن الانتماء المتعصب الأعمى له هو مغالطة فاضحة و خطيرة للغاية ..

فالصواب هو موضوع نسبي يتعلق بعوامل كثيرة خاصة

بكل شعب مع تنوع ظروف و ثقافات الشعوب المتغيرة بحد ذاتها مع الزمن ..

- **الانتماء العرقي** : و هو أيضاً انتماء وهمي قضى عليه اختلاط الأعراق ، الدماء و الأنساب ، لدرجة بات فيها الانتماء العرقي الصرف منقرضاً كحال ديناصورات ما قبل التاريخ ..

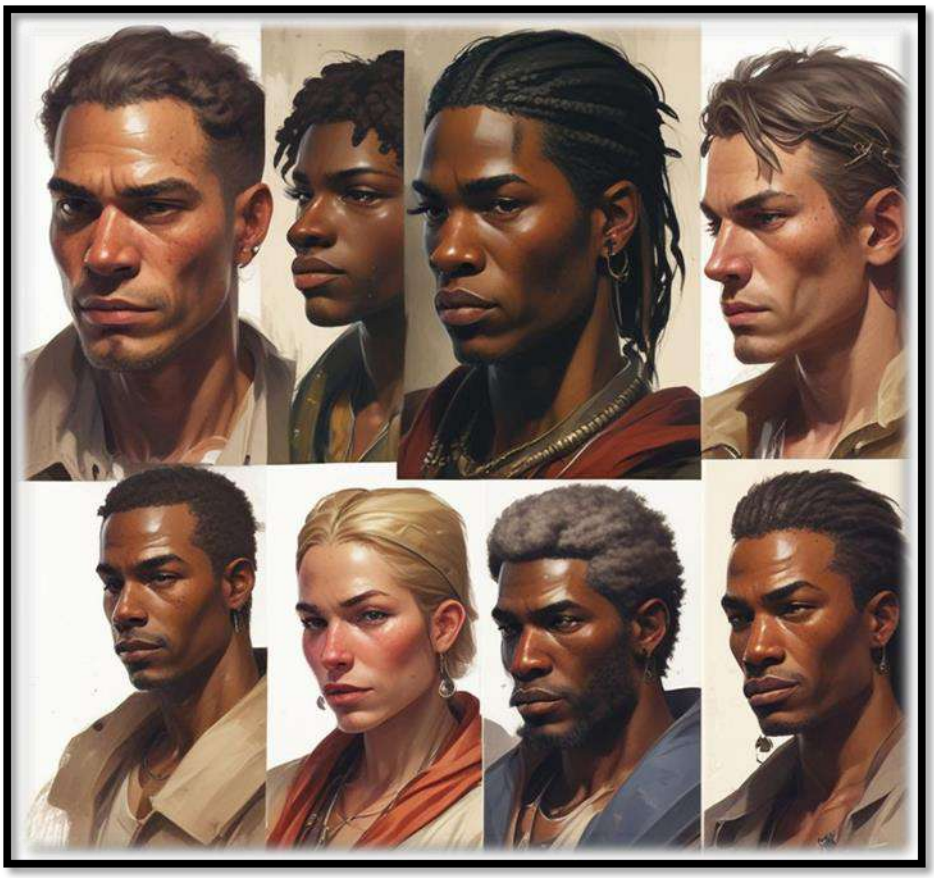

- **الانتماء الديني** : و هو أخطر أشكال الانتماء لأنه ينطوي على فلسفة التكفير و احتكار الله و جنانه لجهة محددة .. للأسف كثيراً ما نتجت عنه حروب دموية خلفت مآسي تدمي القلب .. و الأمثلة على ذلك عديدة و معروفة

بين العديد من أديان البشر .. فهذا الانتماء وهمي بدوره إذ طالما أن الإله واحد عند أغلب سكان الأرض فدينه عبارة عن **خزان مياه ذي صنابير متعددة** تمثل الأديان و كل فرد منها يشرب من صنبوره الخاص لكن المياه الإلهية المقدسة واحدة .. لذا تعتبر مفارقة غير منطقية أن يتصارع الأفراد بين بعضهم من صنبوره هو الأساسي و الصحيح أو مياهه هي المقدسة طالما أنها جميعاً وسيلة للارتواء من مياه خزان واحد ..

- **الانتماء الفلسفي الإنساني** : أسمى أشكال الانتماء و هو الانتماء الحقيقي الوحيد فيما ذكر .. حيث يؤمن أتباعه أن البشر جميعاً أخوة في الإنسانية و يعيشون على كوكب واحد و لهم الحقوق و الواجبات نفسها فيرفضون الظلم و

الإجحاف و العدوان في أي مكان و ضد أي شعب .. و خير مقولة تجسد هذا الانتماء هو مقولة الثائر **إرنستو تشي غيفارا** :

((**إنني أحس على وجهي بألم كل صفعة توجّه إلى مظلوم في هذه الدنيا، فأينما وجد الظلم فذاك هو وطني**))

و قول الإمام **علي بن أبي طالب** :

((**الفقر في الوطن غربة و الغنى في الغربة وطن**))

و في هذه المقولة إشارة إلى أن الوطن الذي ينبغي أن تنتمي إليه ليس مجرد رقعة جغرافية ، بل أي أرض تؤمن لك **الكرامة و الحرية** هي وطنك الحقيقي ، و هو مفهوم إنساني بدوره يتجاوز الحدود الجغرافية الزائفة المصطنعة ..

و كخلاصة نجد أن جميع أشكال الانتماء هي انتماءات وهمية نابعة من مصلحة شخصية بحتة باستثناء الانتماء الإنساني للبشرية جمعاء و ليس للمكان أو الأفكار المتغيرة مع مرور الزمن ..

يتبقى لدينا فكرة أخيرة هامة للغاية و هي مقاربة **الانتماء** من منظور إلهي .. و الذي أكد بدوره على الانتماء الإنساني أيضاً عندما قال الله تعالى في القرآن الكريم :

((**إنّ الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم * قالوا كنّا مستضعفين في الأرض * قالوا ألم تكن أرض الله واسعةً فتهاجروا فيها**))

و في هذه الآية الفريدة إشارة من الخالق إلى أن الأرض ككل هي وطن البشر فإن تعرضوا للظلم في أي مكان منها ،عليهم أن يهاجروا منه إن لم يستطيعوا رد الظلم عن أنفسهم بعد استنزاف الوسائل الممكنة إلى أي بقعة أخرى تؤمن لهم الحياة الكريمة .. فإن لم يفعلوا فقد ظلموا أنفسهم و لم يظلمهم

الله الذي خلق دنيا واسعة لتحتضنهم .. و إن استكانوا للظلم و رضوا به حق عليهم العذاب و المعاناة فلاقت بهم مقولة :

((**كما تكونوا يولى عليكم**))

إذ أنّ الرافض للظلم لا يرضخ له بل يسعى بكل السبل لتغيير واقعه و انتزاع حريته من براثن و أنياب وحش الاستبداد ..

نجد أيضاً في الحديث الشريف :

((**لا فضل لعربي على أعجمي ، و لا لأبيض على أسود إلا بتقوى الله و العمل الصالح**))

أي أن الانتماء اللوني أو العرقي أو الديني مجرد وهم و الصواب ليس حكراً على جهة بعينها بل هو صواب الأفعال و المشاعر النبيلة ..

*****

في ختام تحليل مغالطتنا الجديدة (**الانتماء الوهمي**) ، من الأنسب بعد الآن ألا نقول :

= أنا أنتمي للشخص الفلاني أو للمكان الجغرافي هذا أو للدين المحدد ذاك أو للأفكار المتأطرة تلك ..

بل أن نقول :

= جنسيتي كونية .. و أنا أنتمي لصواب الفكر ، القول ،

الفعل و المشاعر في أي مكان أو زمان .. فالبشر أخوتي كيفما كانوا و سأدافع من أجل رفع الظلم عنهم أينما وجد ..

و ألا نقول :

= لقد ابتليت بأرض سلبتني حريتي و كرامتي و أعيش الأمرين فيها ..

بل نقول :

= بلاد الله واسعة ، فإن ضاقت بي أرض وسعت لي أراضٍ كثيرة أخرى لأجد رزقي ، كرامتي و حريتي فيها .. و سأبحث عن الولاة الصالحين الذين يليقون بي كحكام ..

الانتماء الأعمى و التعصب المتطرف لشخص أو جهة أو بلد أو عرق أو دين أو فكر محدد هو دليل ضعف الشخصية و الثقة بالنفس كما أنه مؤشر على الانقياد مع القطيع كيفما اتجه و الوقوف على درجات متدنية من سلم الوعي البشري و الشعور الإنساني السامي النبيل ..

حلق خارج السرب .. اسبح عكس التيار .. اخرج من القطيع .. بلا خوف أو تردد .. متى أخبرتك بصيرتك أنهم على خطأ .. فضريبة السير لوحدك على طريق الصواب أقل بكثير من ضريبة السير في مجموعة

على طريق الخطأ و الوهم.. ففي النهاية لا يصح إلا الصحيح و المنطق ينتصر لنفسه على الدوام ..

مغالطة النجاح

(السيف الألماسي)

= تفضل سيدي ..

سحب المرافق الكرسي لسيده المليونير في مطعم (فيدا = الحياة بالبرتغالية) فجلس السيد و هو يتفحص الوجوه من حوله ليشعر بنشوة الرضا و التباهي أمام نظراتهم التي ترمق مظاهر الترف المقصود المحيطة بشخصه و ليتفاجأ بين الوجوه بوجه ليس بغريبٍ عليه يجلس إلى الطاولة المقابلة له .. وجه لصديق قديم من الجامعة فرقتهم الحياة بعد الانتهاء من الدراسة و بعد سفر السيد إلى استراليا ليرث شركات والده هناك فيصبح ذا ثروة هائلة بين عشيةٍ و ضحاها .. ما هذه الصدفة الغريبة ! .. ابتسم صديقه له و قد عرفه مباشرةً ثم دعاه إلى طاولته، فلبى السيد الدعوة على الفور و اتجه و خلفه مرافقه الذي سحب له الكرسي ثانيةً و علامات الدهشة و الامتعاض بادية على وجهه إثر مد سيده يده لمصافحة الرجل الغريب لكن الرجل صافحه جالساً دون أن يكلف نفسه عناء الوقوف مما أربك السيد لكنه جلس على كرسيه متجاهلاً الموقف على مضض ..

= يا لها من مفاجأة سارة سيد صابر ؟ تسرني رؤيتك بعد عشر سنوات غياب .. كيف هي أحوالك ؟

= نحمد الله .. أحوالي ممتازة .. و يبدو أن أحوالك بدورك استثنائية سيد كمال من هندامك الفخم و مرافقك الذي يتبعك !

ابتسم كمال بزهو ..

= بالفعل .. أعيش حياةً ناجحة على كافة الصعد فقد ورثت

عن والدي شركاته كلها في أستراليا و أصبحت ثريا للغاية ، أنا اليوم في زيارة للوطن بعد أن تزوجت من فتاة ساحرة الجمال و كونت عائلة من أربعة أبناء مذهلين و صحتي عال العال .. لقد أصبح اسمي مشهوراً على مستوى استراليا و قسم مهم من العالم .. و بلغت بذلك قمة العالم و أستطيع القول الآن و بكل ثقة أنه لم يعد ينقصني شيء في هذه الحياة .. و أنت سيد صابر أرجو أن تكون حياتك ناجحة كحياتي بالضبط ..!

= بالطبع .. و أعتقد أنها أنجح من حياتك حتى ..

= حقاً .. و ما عساه الإنسان يحقق أكثر من ذلك ؟ يتملكني الفضول لمعرفة ماذا حققت في حياتك بدورك ؟

نظر إليه صابر نظرة ثاقبة ..

= أقوم حالياً بتدريس طلاب الجامعة بعض المقررات في منزلي و ذلك يكسبني مالا يسد رمقي و احتياجاتي الأساسية .. لم أتزوج و بالطبع ليس لدي أبناء .. و لست مشهوراً كحالك على الإطلاق ، كذلك لدي مشاكل صحية عميقة ..

نظر إليه السيد كمال متعجباً ..

= هل هذا نوع من المزاح سيد صابر .. كيف تعتبر حياتك هذه أنجح من حياتي ؟! يؤسفني أن حياتك تعثرت بهذا الشكل المأساوي و إن كان بوسعي مساعدتك مادياً على الأقل فذلك يسعدني ..

ابتسم صابر عن أسنان ناصعة البياض ..

= أرى أن امتلاكك لخماسي النجاح الوهمي .. قد خدعك تماماً سيد كمال ..

= الخماسي الوهمي !؟

= أجل .. العمل ، المال ، العائلة ، الشهرة و الصحة .. لكن عليك سيد كمال أن تعي تماماً أنّ القوة الغيبية لم تخلقنا في هذه الحياة كي نحصل على كل شيء .. بل كي نتعلم و نعاني في الدنيا كي نستحق الحصول على كل شيء في الحياة الآخرة .. فالنجاح الحقيقي في هذه الحياة يقيم بشيئين

لا أكثر سيد كمال (**المعاناة** **و** **العلم**) و كل ما عدا ذلك

هو مجرد ماديات ستزول مع الزمن حالها حال أجسادنا الفانية (زنازين أرواحنا) .. و من يفني حياته باللهاث وراء الخماسي الوهمي للنجاح سيعود إلى الحياة في دورة جديدة للتقمص ليتعلم من جديد و يُختبر ثانية .. أما من أفنى حياته في المعاناة و طلب العلم فسيغادر زنزانته الضيقة مرة واحدة و للأبد ..

= هذه فلسفة لا معنى لها سيد صابر .. مجرد تبرير للفشل و العجز عن مواكبة الناجحين أمثالي .. هرطقات يقولها اليائسون من النجاح كنوع من دفاعات الأنا النفسية لتخلق لذواتهم توازناً نفسياً و وهمياً لا أكثر ..

= هذه ليست فلسفتي سيد كمال بل فلسفة الله خالقك و خالقي

الذي قال :

((**يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه**))

أي أن المعاناة هي الطريق التي تصل بنا إلى لقاء الله في السماء و تقينا العودة إلى الحياة مجدداً ..

و قال أيضاً :

((**و لا يلقاها إلا الذين صبروا و لا يلقاها إلا كلّ ذي حظٍّ عظيم**))

فالدار الآخرة طريقها وعر و طويل يحتاج من الإنسان الصبر و العزيمة .. أما الرفاهية فلا تقودك إليها بل تعود بك مجدداً إلى المكان الذي غادرته (الدنيا الفانية سراب الواهمين) ..

كمال متهكماً ..

= الله هو أفيون الضعفاء و العاجزين كي يمدهم بالقوة التي تنقصهم ..

ابتسم صابر ..

= لا زلت ملحداً كما عرفتك في الجامعة .. على كل حال سأسايرك في فلسفتك العدمية هذه سيد كمال .. فكل ما حققته

من نجاح افتراضي في حياتك لا معنى له تبعاً لفلسفتك لأن مصيره كمصيرك إلى العدم بعد فترة محددة من الزمن ليصبح غباراً منثوراً في هذا الفضاء الواسع فما الفائدة من شيء لن يدوم إلا بضعة سنين ، الأحرى بالإنسان عندها إما أن ينهي حياته و معاناته مبكراً فيختصر على نفسه الطريق أو يقضي حياته مستمتعاً إلى أقصى حد ممكن كونها تجربة وحيدة لن تتكرر و ستنتهي إلى غير رجعة .. أما فلسفتي و هرطقاتي التي ذكرتها فلن تفهمها حضرتك لأنه كما يقول المثل الصيني :

((**من يرتدي الأحذية يجهل معاناة الحفاة على الطريق الوعرة بالصخور**))

فقد ولدت و في فمك ملعقة من ذهب و امتلكت كل شيء فلم تعرف للمعاناة سبيلاً و لا زلت بحاجة للكثير من التعلم و المعاناة في هذه الحياة كي تستحق القيامة منها إلى السماء ..

صمت صابر للحظات وهو يعاين نظرات السيد كمال الغاضبة و الممتعضة ..

= اعذرني الآن سيد كمال فلقد أنهيت غدائي و كنت هاماً بالمغادرة .. أرجو لك التوفيق في زيارتك هذه للوطن و في حياتك هناك في أستراليا .. ربما نلتقي مرة ثانية بعد سنين أخرى و قد تبدلت قناعاتنا فالحياة مستمرة لا تركد و كل شيء فيها في حركة دائمة و تغير مستمر ..

أشار صابر إلى أحد العاملين في المطعم فتقدم إليه يجرّ كرسياً متحركا للمقعدين و ساعده على الانتقال إليه ، نظر صابر إلى كمال المصعوق من المنظر ..

= بالمناسبة لقد تعرضت لحادث سير منذ تسع سنوات جعلني مقعداً فلم أستطع العمل كبقية الناس أو الزواج و تكوين عائلة كما فقدت صحتي و بالطبع كمحصلة لذلك لم أملك المال الوفير أو الشهرة العظيمة .. لكنني امتلكت ما هو أهم من هذا الخماسي الوهمي .. امتلكت الحكمة من المعاناة و العلم من القراءة في وقت فراغي الطويل .. و أنا على ثقة أن قيامتي من هذا الكرسي ستكون إلى الأعلى و لن تجرني

إلى الأسفل مجدداً .. تذكر يا صديق أن : **أيوب** عانى الويلات الصحية و **المسيح** لم يتزوج أما **محمد** فقد توفي و هو لا يملك فلساً واحداً في جيبه.. فلو كانت هذه مقاييس النجاح في الحياة لكان هؤلاء أولى عند خالقهم بها و لمارسوها بحذافيرها كي نقتدي بهم .. أراك بخير ..

*****

هذا الحوار المقتضب بين صابر و كمال يطرح مغالطة جديدة شائعة بين الناس و هي مغالطة (النجاح) .. ما هي مقاييسه و كيف نقيمه ؟ .. أما السؤال الأهم المرتبط بها فهو على النحو التالي :

((**هل العمل** ، **المال** ، **العائلة** ، **الصحة و الشهرة تمثل خماسي النجاح الذهبي** .. **أم أن للنجاح تقييماً آخر تماماً** ؟))

قبل الخوض في مقاربة هذه المغالطة لا بد من التركيز على نقطتين هامتين للغاية ..

1 النجاح في المجالات الخمسة المذكورة آنفاً ليس أمراً سهلاً بالضرورة ، و الحصول عليها شيء إيجابي و جيد في الحياة .. و ما نناقشه هنا هو النجاح الجوهري ، الأساسي و

الأهم في الحياة أي غاية الخالق من الخلق و من هذه الدنيا .. و ليست دعوة على الإطلاق إلى الإحجام عن تحقيق الذات في هذه المجالات أو محاولة الحصول عليها كلها أو على بعض أركانها الخمسة ..

❷ تحليل هذه المغالطة هو من منظور إيماني بحت .. لأن معالجتها من رؤية إلحادية لا معنى له .. فإن كان الإنسان بنفسه قد أتى من العدم و سيعود إلى العدم فحياته برمتها مهما كانت و كيفما عيشت عدمية و بلا معنى ..

و على هذا الأساس نبدأ مقاربة هذه المغالطة من فكرة ثنائية الدنيا و الآخرة .. و السؤال الأزلي الأبدي :

((**ما هي غاية الله من خلقنا في الدنيا كمرحلة وسيطة إلى الآخرة** .. **بدلاً من خلقنا مباشرةً في الآخرة و منحنا كل شيء هناك** .. ؟))

و للإجابة عن هذا السؤال سنلجأ إلى حكمة و مثل شعبي شهير يجيب عليه و هو :

((**درهم مال يحتاج قنطار عقل لإدارته**))

فما قولك بالحصول على كل شيء دفعة واحدة .. كم من عقل و حكمة يتطلب للمحافظة عليه .. ؟! و بناءً عليه فإن الدنيا أشبه بمدرسة واسعة يعلمنا فيها الخالق الحكمة و ينمي

عقولنا و ينيرها كي نتعرف أكثر على ذواتنا ، على الكون من حولنا و على طبيعة الحياة وفن إدارتها بشكل سليم .. و وسيلته الأسمى للوصول إلى ذلك هي (**الوعي**) الذي يُخلق كما ذكرنا في الحوار بين صابر و كمال عن طريق ثنائية (**المعاناة و العلم**) لا غير ، فكلما نهلت من نبعهما أكثر زاد وعيك أكثر فزادت حكمتك بشكل أكبر و أصبحت جديراً بالحصول على كل شيء في الدار الآخرة كونك تدرك تماماً كيف تديره و تحافظ عليه .. و بذلك كانت حياتك بالمحصلة ناجحة ، قيمة و ذات مغزى عميق و مؤثر ..

بذلك يكون جوابنا المبسط الوجيز للسؤال الأول عن تقييم النجاح :

((**النجاح هو نجاحك في امتلاك الوعي كي تحافظ على مكاسبك في الآخرة .. أما مكاسبك المادية في الدنيا المؤقتة فهي مؤقتة بدورها و ذات قيمة تهمل لصغرها أمام النجاح الأكبر المذكور**))

فهل امتلاكك لشركات كبيرة يمنحك الحكمة ؟ .. على الأغلب لا .. و هل الزواج أو الجنس يزيد وعيك ؟ بالطبع لا .. و هل فقدانك لصحتك يشكل عائقاً أمام الوعي ؟ على العكس .. و هل المال الوفير سيجعلك حكيماً ؟ أبعد ما يكون

عن ذلك .. و أخيراً هل شهرتك الواسعة تعبّد لك الطريق إلى الدار الآخرة ؟ لا علاقة أبداً بينهما ..

و هكذا فالخماسي السابق هو خماسي وهمي للنجاح الحقيقي رغم تأثيره الإيجابي أحياناً و ضرورته للاستمرار على قيد الحياة ، لكنه في النهاية ليس الهدف الأساسي من الحياة و بالتالي ليس النجاح الأكبر و الأسمى فيها ..

و يطيب لي تشبيه الموضوع برمته بأننا نعبر محيطاً يمثل الحياة الدنيا إلى بر يابسة الأمان و هي الدار الآخرة .. كلٌّ على قاربه الخاص فمن خفت حمولته بلغ اليابسة سريعاً و بدون مشاكل ، أما من ثقلت حمولته من مطامع الدنيا المادية من مال ، جنس ، شهرة و مناصب ثقل قاربه وربما غرق إن لم ينتبه في الوقت المناسب لخطورة هذه الإغراءات المادية ليرمي بها من قاربه من خلال عدم التمسك الشديد و الأعمى بها ..

ننتقل الآن إلى تحليل العاملين الهامين في النجاح الحقيقي :

(العلم و المعاناة) ..

بالنسبة **للعلم** ، لا يختلف اثنان على العلاقة الطردية بين

العلم و الوعي بدليل أن تقدم العلوم و ما صحبها من اكتشافات و اختراعات سهّل حياة الناس في مختلف المجالات ، حسّن من صحتهم و جعلهم يدركون أكثر مدى دقة الخلق اللامتناهية و الإبداع العظيم و المثالي في تكوين

الكون بحيث قاد محصلي العلم إلى الإيمان بوجود قوة غيبية حكيمة تقف وراء كل ذلك .. فكما قيل في الحديث الشريف :

((**العلماء ورثة الأنبياء**))

و في ذلك إشارة إلى أن العلم و الثقافة تقود صاحبها إلى الله كما يفعل الأنبياء بالضبط بقيادة البشر إليه ..

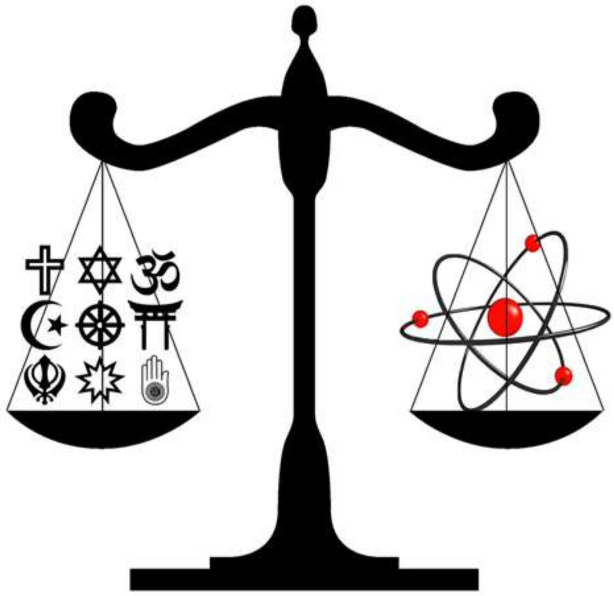

و لا يغفل عنا أن الفلسفة بحد ذاتها كشق أساسي من العلوم هي ذروة الوعي بطرح الأسئلة الوجودية و منبع الحكمة لإدارة حياتنا بفن و حرص و بشكل هادف ذو مغزى كي نستحق ما يمنحنا إياه الخالق لاحقا بعد الموت في الدار الآخرة ..

في الحقيقة لقد جعل الخالق من هذه الحياة مدرسة حقيقية مذهلة فيها كل شيء يحتاجه الإنسان لبلوغ الوعي و الحكمة ، فكل شيء متوفر و بطرق شتّى متنوعة بمنتهى الإبداع و

الأهم أنه منحنا العقل الفريد و الإعجازي كأداة تمكننا من الاستفادة من كل شيء حولنا لننجح في غايتنا من هذه الحياة (**إن أردنا ذلك بالطبع**) .. فالعلوم غزيرة من حولنا في كافة المجالات المادية و الفلسفية و لدينا عقل مذهل لتحصيل ما نحتاجه و ما نرغبه منها .. فالخالق المعلم الأول المبدع منحنا (**الغاية و الوسيلة**) معاً بأبهى صورة ممكنة .. و يبقى الخيار خيارنا في تحديد الغاية و استخدام الوسيلة فإن كانت غايتنا تحصيل المكاسب المادية فقط من الحياة خُدعنا ، فشلنا و عدنا إلى دورة الحياة ثانيةً .. و إن أحجمنا عن استخدام الوسيلة (**العقل**) لبلوغ تلك الغاية تهنا في متاهة الحياة الدنيا و احتجنا حيوات أخرى عبر التقمص لنصحح أخطاء الماضي .. و لا أنبل من إله يمنحنا على الدوام فرصاً كثيرة لننقذ أرواحنا من زنازينها سواء في حياتنا نفسها أو في تكرار حيواتنا من جديد .. كالمعلم النبيل الذي لا ييأس من تلاميذه و يلاحقهم باستمرار كي يتخذوا الطريق القويم في المدرسة بتحصيل العلم و المواظبة على ذلك .. أو كالأب الرحيم الذي يعلم أبناءه (**بميزان من الرأفة و الحزم**) كيف يعتمدون على أنفسهم و يديرون حياتهم القادمة المستقلة بإبداع .. فنحن في الدنيا نعيش في منزل والدينا أما في الآخرة فسيستقل كل منا بحياته بعد أن تعلم فن الاعتماد على نفسه ..

ننتقل إلى الوسيلة الثانية و الأهم لتحصيل الوعي و تحقيق النجاح في الحياة و هي (**المعاناة**) ..

لننطلق في تحليل هذه النقطة من مثل شعبي آخر إضافةً إلى مثال حي من واقعنا ..

أما المثل الشعبي فيقول :

((**كل ذي عاهةٍ جبار**))

و هذا المثل الذي يُقصد به العاهة الجسدية أو النفسية أو المادية كالفقر أو أياً كانت ينطوي على حقيقة حاسمة في نقاشنا بأن المعاناة في الحياة تصنع منا كائنات أسطورية قادرة على اجتراح المعجزات ، القفز فوق العوائق و تحقيق الذات بامتلاك وعي لا مثيل له و ذلك بسبب تحرير الطاقات الكامنة فينا و التي أحب تسميتها (**قوة الله القابعة في أعماق ذواتنا**) و التي لا تخرج إلا في حالات العجز تماماً **كهرمونات الشدة** عند الإنسان من كورتيزول ، أدرينالين و غيرهما و التي تمد الإنسان في حالات التوتر و الخطر بقوة هائلة من زيادة النبض و التنفس ، توتر العضلات و تحفز الذهن للخروج منها سالماً .. كذلك العاهات بكافة أشكالها تُخرج منا أشياء و قدرات لم نكن لنتخيل أنها موجودة فينا ، و كمثال على ذلك نتذكر حقيقة علمية مثبتة

بأن الشخص الأعمى تتطور لديه حاسة السمع بشكل خارق مما يؤكد أن في داخلنا طاقات مرعبة لا تتحفز إلا في حالة المعاناة و العجز ..

ننتقل الآن إلى المثال الحي عن تأثير المعاناة في حياتنا و هي حالة بناء الأجسام .. فالإنسان الذي يحجم عن ممارسة الرياضة تضعف عضلاته و ربما ضمرت مع الزمن .. أما الشخص الرياضي الذي يحمل الأثقال تتضخّم عضلاته و تقوى .. و المعاناة في حياتنا تمثل الأثقال التي نحملها فوق أكتافنا أما العضلات الضخمة فتمثل الوعي المتضخم في ذواتنا مع المعاناة المزمنة ..

و كما قال السيد المسيح :

((**من أراد التحرر و العبور إلى الدار الآخرة فلينكر ذاته و يحمل صليبه و يتبعني**))

و في هذه المقولة نقطتان هامتان للغاية .. **الأولى** هي نكران الذات أي الابتعاد عن الغرور و التباهي بنجاحاتنا في أقطاب النجاح الخمسة الوهمية أمام الأقل حظاً منا ممن حرمتهم الحياة لأسباب مختلفة من بلوغ النجاح فيها كما فعل كمال مع صابر بالضبط .. و الثانية أن لكل منا صليب من الآلام و

المعاناة الخاصة به التي عليه أن يحمله فوق أكتافه برضا و قناعة و بلا تذمر كي يصل إلى التحرر النهائي أو ما يدعوه البوذيون (**النيرفانا**) كما يفعل صابر تماماً ..

و كما قال عاشق الكآبة و المعاناة الأديب العظيم **جبران خليل جبران :**

((**بدأت أستوعب وأفهم الآن، أن سعادتي تكمن في التخلي عن المزيد، لا الحصول على المزيد**))

فقد أدرك جبران أن تخفيف حمولة قاربه ستبلغه الأرض الجديدة المنشودة بيسر و سرعة أكثر .. حتى أننا نجده يقول أيضاً :

((**كلّما عمُق الحزنُ حفرَةً في كينونتك ازدادت قُدرتك على احتواء فَرح أكبر**))

و في ذلك إشارة إلى أن المعاناة تخلق الوعي الذي يقتنص السعادة بطريقة أكبر لاحقاً خاصةً في الدار الآخرة .. فمن يتألم في الدنيا أكثر ستليق به أفراح الآخرة أكثر بلا شك .. و لقد استشعر البشر هذه الحقيقة منذ زمن موغل في القدم فنجد أن الأبطال الأساطير في الميثولوجيات المختلفة مروا جميعاً بظروف قاهرة صنعت منهم أشخاصاً خارقين و في شخصية **هرقل** خير مثال على ذلك بمهامه الاثنتي عشر التي تنضح

شقاءً و ألماً و معاناة ..

و أورد الآن ثلاثة أمثلة معبرة تجسّد فلسفة المعاناة :

◈ **المثال الأول** المكنسة المتسخة تشير إلى أنها قامت بواجبها على أكمل وجه أما المكنسة النظيفة و البراقة فهي تشير إلى أنها لم تفعل أي شيء مفيد .. و المعاناة هي الدليل على أننا قمنا بواجبنا و نجحنا بامتلاك الوعي فنظفنا أنفسنا كالمكنسة من رواسب الحياة و مادياتها الفانية التي تغوينا و تغرينا باستمرار ..

◈ **المثال الثاني** المعدن لا يمسي سيفاً حاداً بتاراً إلا إذا

صهر في الأول في درجات حرارة عالية جداً كي يصبح مادة مطواعة قابلة أن تملأ قالب السيف .. كذلك المعاناة تصهرنا لتصنع منا بشر آخرين في قوالب الدار الآخرة ..

◈ **المثال الثالث** هو **الألماس** أنفس الأحجار الكريمة و

الذي كان في بداياته المتواضعة **مجرد فحم خام** قليل القيمة لكن الضغوط العالية التي تعرّض لها في أعماق الأرض مع مرور الزمن أحالته إلى هذا الشكل النفيس و الفريد لتصقله الأنامل الخبيرة ألماساً براقاً ساحراً للناظرين .. كذلك الإنسان فهو بلا معاناة مادة خام قليلة القيمة لكن مع التعرض لضغوط الحياة المزمنة يستحيل شخصاً آخر نفيساً يصقله الله الخبير في جنانه الرحبة ..

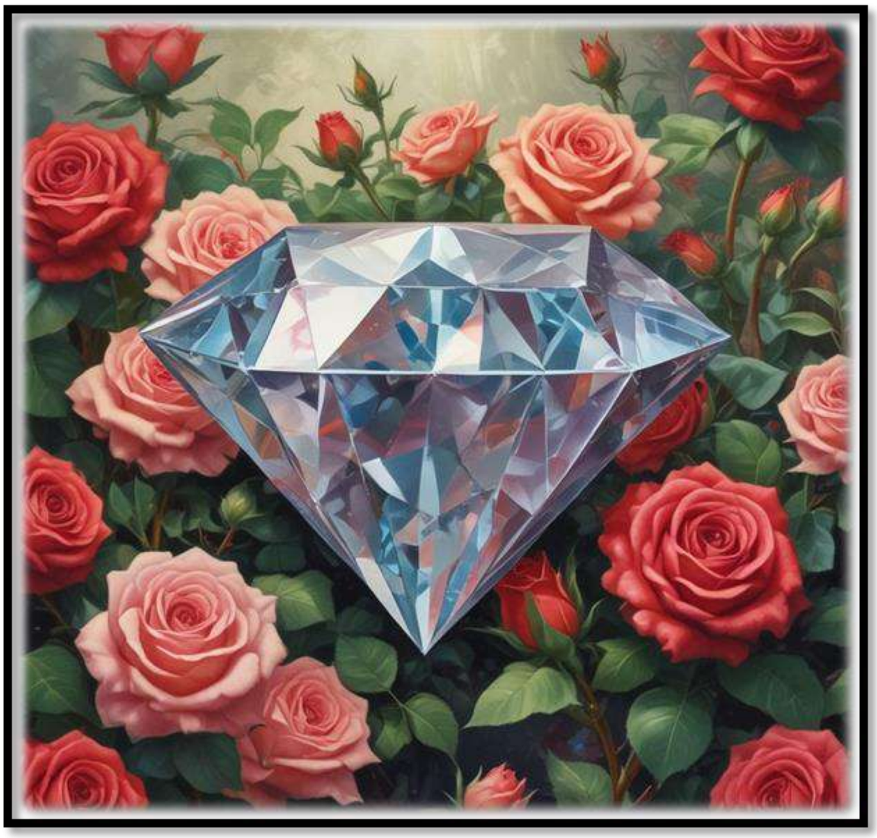

و أخيراً لا بد من التنويه إلى نقطة غاية في الأهمية و هي أن الإيمان ليس شرطاً لبلوغ الدار الآخرة ، فكم من مؤمنين سيعودون إلى دورة التقمص و كم من ملحدين سيغادرون أجسادهم إلى السماء مرة واحدة و إلى الأبد ، لأنه كما أسلفنا منذ قليل فالوعي الذي سيحررنا يتولد من العلم و المعاناة و كثير من المؤمنين لا يختبرانهما و أكثر من الملحدين يعيشانهما واقعاً حياً في حياتهم ، فالملحد الذي تعلم حقائق الحياة و عانى نصيبه من الدنيا ستليق به الآخرة رغم إلحاده فهو بات قادراً على إدارة شؤون حياته الخاصة هناك فهذه غاية الله من الخلق ، و الله أكبر و أجل و أعلى من أن يحتاج إيماننا به كي يثبت ألوهيته فكل شيء في الكون ينطق بها .. و كما قال الشيخ الكبير الإمام **محمد عبده** بعد عودته من زيارة أوروبا عام **1881** م :

((**رأيت في أوروبا إسلاماً بلا مسلمين، وأرى في بلادي مسلمين بلا إسلام**))

فالدين معاملة و أفعال .. ليس كلاماً فارغاً أو شعائر مفرغة من مضمونها .. و خير شخص يجسد كل ما ذكرناه آنفاً العالم الفيزيائي (**ستيفن هوكينغ**) الذي عانى من مرض **التصلب الجانبي الضموري** مما سبب له شللا تاما في جسده منعه حتى من الكلام فأصبح أسيراً لزنزانتين في

وقت واحد (جسده و كرسيه المتحرك الشهير) فهو رغم كونه ملحداً كما يقول البعض أو على أقل تقدير غير متدين البتة فقد امتلك من العلم و المعاناة ما يكفي شعباً بكامله ، مما يجعل روحه تغادر زنزانتيه عالياً إلى سماوات الله الرحبة التي تليق بأمثاله دون رجعة إلى هذه الدنيا الفانية ..

*****

في ختام تحليل مغالطتنا السابقة (**النجاح الحقيقي**) ، من المستحسن بعد الآن ألا نقول :

= أنا ناجح لأنني أملك كذا و كذا و كذا ..

بل أن نقول :

= أنا ناجح بما تعلمته في هذه الحياة و بما عانيته فيها من آلام صهرتني تحت ضغوطها لتجعل مني **سيفاً ألماسياً ينتظره غمده الفريد في الدار الآخرة** ..

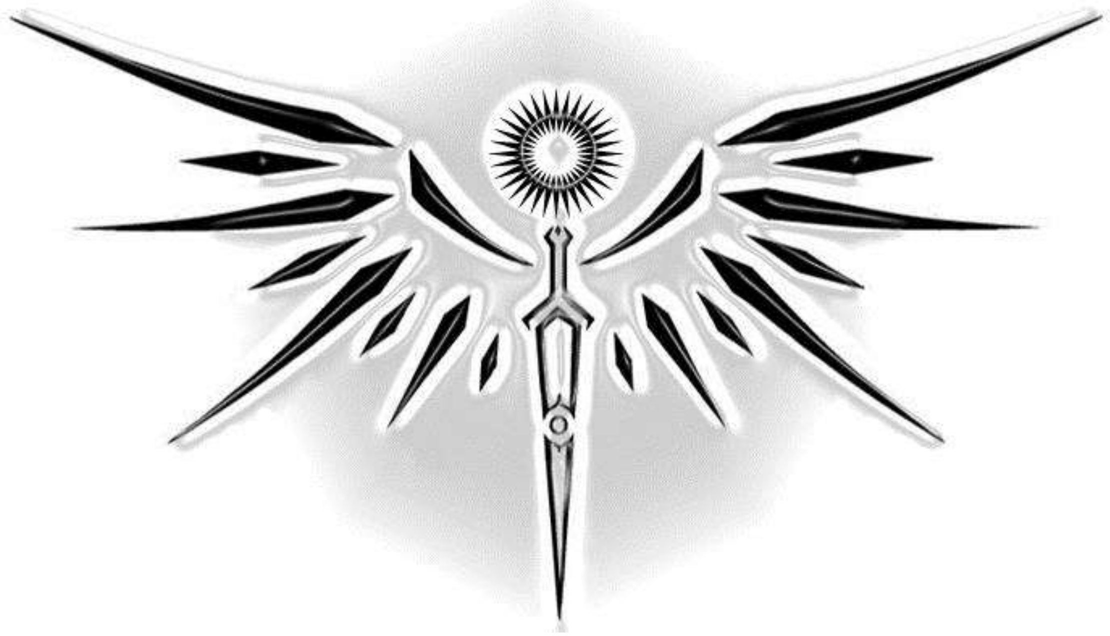

فلنسعَ جميعاً إلى تحقيق النجاح الحقيقي بحقّ في الحياة كي نجنب ذواتنا مشقة حياة أخرى لا ضرورة لها عبر التقمص ، دون أن نغفل عن النصيحة الماسية لله من أجلنا :

((**و ابتغِ فيما أتاك الله الدار الآخرة** ، **و لا تنس نصيبك من الدنيا**))

و هذه إشارة من الخالق لنا أن نسعى للعلم و المعاناة من أجل تحرر أرواحنا من سجونها ، لكن في نفس الوقت أن نتمتع بما رزقنا الله في هذه الحياة من نجاحات في أقاليمها

الخمسة:

((العمل ، المال ، العائلة ، الصحة و الشهرة))

دون أن نغفل عن الحقيقتين الماسيتين أيضاً :

- ألا نطمع بهذا الخماسي كثيراً فينسينا النجاح الحقيقي ..
- حرمان الله لنا من أركانه الخمسة أو من بعضها هو شكل من أشكال المعاناة التي ستحرر أرواحنا لاحقاً .. لذا تقّبل مشكلتك ، عجزك ، عاهتك و حرمانك بصدرٍ رحب و نفسٍ رضية فكله خير في المحصلة بحكمةٍ إلهيةٍ ..

مغالطة المنتصر يكتب التاريخ

(سنجاب الحقيقة)

= للأسف لقد خسر وطننا الحرب و انتصر عدونا الغاشم ..

= و كل ما فعله العدو بنا من ظلم قبل ، أثناء و بعد الحرب سيجد رواية يتيمة من طرف واحد عنه تزيّف الحقائق و تطوّع التاريخ كما تريد و تهوى و سيذهب كفاحنا إلى العدم كجهد ضائع لن يسمع به أحد ..

= تماماً ، أشعر بالإحباط و الغبن .. لن يعرف أحفادنا أي نضال مشرف خضناه .. سنكون في نظرهم مجرد مهزومين لفظهم التاريخ من صفحاته ..

*****

في هذا الحوار بين مناضلين مهزومين في إحدى الحروب تبصر مغالطتنا التالية الشهيرة النور .. مغالطة (التاريخ يكتبه المنتصرون) .. هذه العبارة التي تُنسب بحسب

بعض المصادر إلى **وينستون تشرشل** الذي اشتهر بانتصاراته الساحقة التي غيرت ملامح التاريخ بالفعل .. لأنه كان يؤمن بهذه المقولة فتجنب الهزيمة بكل طاقته ، إمكانياته و تحالفاته المدروسة بعناية ..

لكن السؤال الهام الذي يطل برأسه علينا هنا :

((**هل حقاً المنتصر الظالم يروي القصة على هواه ليظهر بمظهر البطل** ، **أما المهزوم المظلوم فيسقط عمداً مع نضاله من أجل الحق من كُتُب و أرشيف التاريخ** ؟))

هذا ما سنقوم بمقاربته الآن لنعرف الإجابة الدقيقة عن سؤال هذه المغالطة .. و سنقوم من أجل ذلك بمقاربتها على محورين :

① **المحور الأول** : **طرق المنتصر الظالم في تزوير الحقائق و كتابة التاريخ بما ينسجم مع مصالحه** :

❂ تكميم الأفواه بقوة السيف أو القوة العسكرية التي ترهب ، تخيف و تمنع المهزوم و أنصاره من رواية القصة من زاويتهم ، و ذلك عبر التهديد و الوعيد ..

۞ مصادرة و إتلاف أي وثائق تخالف رواية المنتصر المرغوبة .. و بالتالي تجفيف أي مصدر للحقيقة غير مصادره المزيفة التي يغدق بها أنهاراً ..

۞ وسائل الإعلام التي تكون تحت تصرف المنتصر بأشكالها المختلفة و التي تقوم بعملية غسيل دماغ للشعب و تقنعه برواياتها الخاصة الملفقة متبعين **فلسفة التبسيط و التكرار** التي أشار إليها **أدولف هتلر** :

((**إذا أردت أن تكذب كذبة كبيرة حاول تبسيطها ثم قم بتكرارها كثيراً، في النهاية ستصدق**))

فتكرار الكلام على الأذن له مفعول السحر ..

❁ تطويع الأقلام لكتابة و توثيق الحقيقة الملفقة من زاوية المنتصر بالأدلة المبتدعة و التبريرات المعسولة .. و لأن الكذبة تكون مجملة ، مزينة و مصاغة بأفضل طريقة ممكنة فإنها تنتشر بين الناس كانتشار النار في الهشيم ، أما الحقيقة و لأن لها وجهاً واحداً فقط كما أنها لا تروى إلا بطريقة يتيمة كما حدثت بالفعل فإنها تنتشر ببطء كالمشي في حقلٍ مليء بالألغام .. و هذا ما أشار إليه الأديب **مارك توين** :

((**يمكن للكذبة أن تسافر حول نصف الكرة الارضية قبل أن ترتدي الحقيقة حذاءها**))

② **المحور الثاني** : **طرق المهزوم المظلوم في الحفاظ على الحقيقة كما هي في وجه محاولات الظالم المنتصر لتحريفها و تزييفها** :

❁ قوة **الفكرة** السحرية ، فالمنتصر قادر على قتل الأجساد و إحراق الكتب أو أي شيء مادي محسوس لكنه غير قادر على مصادرة الأفكار و مسحها من الوجود ، لذا ستبقى تنتقل عبر الأجيال تروي بطولات المظلوم و تضحياته الجسام ، فأجمل ما في الفكرة أنها **غير محسوسة بالحواس الخمسة و لا يشعر بها سوى الدماغ الخفي كالفكرة نفسها**

كملك ضمن قصره العظمي .. لذا فالفكرة هي مؤرق المستبدين و عقدة الظالمين فهي تضع حداً لسيطرتهم و سطوتهم و تنتهي عند أقدامها قدراتهم و بطشهم ليقفوا عاجزين لا يمكنهم فعل أي شيء ينهيها من الوجود ..

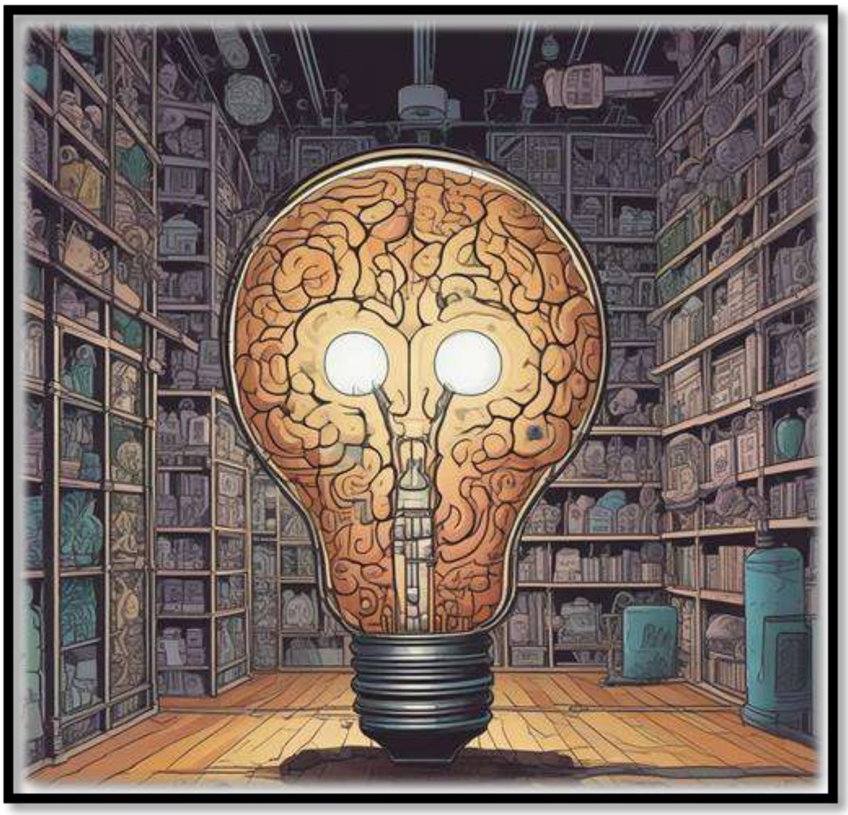

۞ الهروب إلى بلدان أخرى لا تخضع لسيطرة المنتصر و توثيق الحقيقة بالكتابة ، لتكتشف لاحقاً كأثر بعد مرور السنين و تطور العلم كناجٍ من مجزرة التزييف التي حصلت .. ثم تبدأ بالانتشار ، التوسع و إعادة رواية التاريخ مع إثارة الأسئلة حول حقيقة ما حدث في تلك الليلة التي هزم فيها المظلوم و انتصر الظالم .. فللكذب حدود معينة يمكنه بلوغها لكنه يصطدم في النهاية بجدار الحقيقة الفولاذي كما قال **أبراهام لينكولن :**

((تستطيع أنّ تخدع كل الناس بعض الوقت أو بعض الناس كل الوقت ، لكنك لا تستطيع أنّ تخدع كل الناس كل الوقت))

فالحقيقة كفكرة غير قابلة للموت بل ستغفو كالأميرة النائمة لسنين أو عقود أو حتى مئات و آلاف السنين لكنها ستسيقظ ذات يوم بقبلة من الأمير الوسيم الشجاع (الإنسان الباحث عن الحقيقة الذي يقرأ التاريخ من مصادر مختلفة ثم يقاطعها و يفند مصداقية كل منها حتى يستنبط النتيجة أخيراً حول ما حدث في الماضي بحق) ..

و من هذه المقاربة الوجيزة لمحوري مغالطة (التاريخ يكتبه المنتصر) نجد أنه من المستحيل على المنتصر مهما بلغت قوته و سطوته أن يخفي الحقيقة للأبد .. فالفكرة غير القابلة للمصادرة أو الإتلاف أو الإعدام أو السجن ستنتقل عبر الأجيال **كوراثة جسدية قاهرة مع اختراق كامل** لا يمكن إلا أن تظهر جيلاً بعد جيل .. فيكون بذلك جوابنا النهائي الحاسم عن السؤال الأول :

((التاريخ لا يكذب مهما جره المنتصرون إلى شهادة الزور بالترغيب أو الترهيب))

فكما قال الإمام **أحمد بن حنبل** :

((للباطل جولة لكن للحق جولات))

و مهما طمر المنتصر الظالم بذرة الحقيقة في أعماق التراب ثم ردمها بالصخور فإن شجرة الحق ستجد طريقها إلى فضاء البشرية و تنبت بين الصخور متحديةً كل وسائل تكميم فمها أو تشويه وجهها الجميل .. فدماء التضحيات الجسام للأبطال المظلومين و إن هزموا ستورويها بطريقة مقدسة و سحرية كالأساطير كي تنبت شامخة و تؤتي أكلها للأجيال ثمار حق يانعة و شهية ..

و التاريخ يعج بالقصص و الأبطال الذين ظلموا ، هزموا و ربما قتلوا في معركة الحقيقة لكن إرثهم استمر و حقيقتهم أبصرت النور و توارثتها الأجيال فكرة ساطعة حتى يومنا هذا في حين زال إرث المنتصر الظالم رغم كل محاولاته لطمس الحقيقة و الترويج لأكاذيبه فعاد لحجمه الطبيعي تحت مطرقة قاضي التاريخ .. و نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ..

❁ **شخصيات دينية** : **المسيح** و **الحسين** حفيد محمد

رسول الله ، إذ لا زال ذكرهم خالداً و مبادئهم حية بعد آلاف السنين من اضطهادهم و قتلهم .. أما قتلتهم فنسيهم الناس و عادوا لحجمهم الحقيقي ..

❁ **شخصيات سياسية و عسكرية** : الإنجليزي **جاي فوكس** ، الاسكتلندي **وليام والاس** و الأمريكي **مارتن لوثر كينغ** ..

❁ **شخصيات علمية** : **سقراط ، غاليلو ، فيثاغورث** و **جوردانو برونو** (هذا الأخير كان عالم فلك اتهمته الكنيسة بالهرطقة فاقتيد عارياً في طرقات روما ثم أحرق حياً في ميدان النار وسطها) ..

❁ **شعوب بأكملها** : و مثال ذلك الفاضح هو **الهنود**

الحمر الذين حاول الأوربيون في أمريكا الشمالية و الإسبان مع البرتغاليين في أمريكا الجنوبية إبادتهم و مسحهم عن الوجود لكنهم ثبتوا في أرضهم و استمروا رغم كل ما لحق بهم من أذى و تنكيل و لازالوا حتى يومنا هذا شهوداً من الماضي بتوارثهم للحقيقة على المجازر التي حدثت بحق أجدادهم يروون الحكاية كما حدثت بالضبط ..

كذلك حال **اليهود** في هولوكوست أوروبا ..

و القاسم المشترك بين كل هؤلاء أنهم إما ظلموا أو نطقوا

بالحقيقة أو أرادوا تغيير العالم نحو الأفضل فحاول رواد الظلام اسكاتهم بشتى الطرق حرصاُ على مكاسبهم و مصالحهم حتى اضطروا في النهاية إلى قتلهم كوسيلة وحيدة لإسكاتهم .. لكن أفكارهم استمرت بالإشراق على الأرض برمتها جيلاً بعد جيل حتى أثبتت صحتها بالعلم و المنطق فانتصر أصحابها بعد مئات السنين في معركة هزموا فيها ذات يوم و حاول قتلتهم طمس الحقيقة التي نادوا بها ففشلوا و خسروا معركتهم رغم مرور زمن طويل على ذلك ..

فالمظلومون هم ككثير من **نجوم السماء** التي نراها ليلاً ،

في الحقيقة انفجرت و ماتت منذ ملايين السنين لكن ضوأها يصلنا اليوم فنراها ثابتةً و مشعةً في السماء .. كذلك نور الحقيقة سيصل إلى القلوب و لو بعد زمن طويل من موت روادها المنادين بها ..

و من محاسن زمننا الحالي زمن العولمة حيث أصبح العالم فيه اشبه بقرية صغيرة أنه بخلاف الماضي لم يعد الظالم و إن انتصر قادراً على تشويه الحقيقة بسهولة رغم إمكانياته العسكرية و الإعلامية المهولة .. إذ أصبح للمظلوم منابر كثيرة توصل فكرته و قصته الحقيقية إلى الجميع .. و أصبحت كتابة التاريخ أصعب مما كانت عليه في الماضي السحيق .. مما يبشر بأن عالماً أفضل يسوده العدل و الإنصاف على الأعتاب .. فالظالم يتمادى إن لم يجد ما يردعه ، لكن بوجود الرادع القوي له سينكفئ و يتراجع عن ظلمه فيتصحح اختلال ميزان الحياة ..

*****

في ختام مقاربتنا لهذه المغالطة الجديدة ، و مهما كانت معركتنا في هذه الحياة فردية أم جماعية من الأنسب بعد الآن ألا نقول :

= لن أبذل أي جهدٍ بعد اليوم قولاً أو فعلاً فالظالم القوي يمحو ما يشاء و يثبت ما يشاء و لن يبقى لي في التاريخ من ذكر سوى أنني هزمت ..

بل أن نقول :

= كل حق أعبّر عنه قولاً أو فعلاً سيقاوم كل وسائل الوأد أو التشويه و سيستمر و لو لآلاف السنين ليروي القصة

الحقيقية عن مناضل كافح بشرف من أجل الحق و هُزم مظلوماً لكنّ فكرته ستنتصر عاجلاً أم آجلاً و تشع كالنجم في السماء فالله وحده هو من يمحو ما يشاء و يثبت ما يشاء و الله حق و لا يدعم سوى الحق فلا يبقي إلاه كما قال رسوله محمد :

(اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة)

فالله سيلبي نداءه و لو بعد حين ..

منذ آلاف السنين قال الكاتب التراجيدي الاغريقي **سوفوكليس** :

((الكذبة لا تعيش حتى تصبح عجوزاً))

و بقاء هذه المقولة بعد آلاف السنين من قولها و ذكرنا لها الآن هو بحد ذاته إثبات لصحتها فالحقيقة هي من تعمر و تدوم لأنها مدعومة بالعقل و متسلحة بالمنطق و هذا ما يستمر و يقاوم عوامل الزمن التي تعري الكذبة من ردائها الهش في حين تصمد الحقيقة بدرعها الفولاذي..

لا تستهن بقول الحق أو رواية الأحداث كما هي على حقيقتها مهما قل سامعوها أو مصدقوها بوجود وسائل

الإعلام الكاذبة و المزيفة للوقائع بل ازرعها كلمةً أو فعلاً و امضِ في طريقك متذكراً حقيقة علمية معبرة للغاية :

إنّ أغلب أشجار العالم نمت من **بذور** طمرها **سنجاب** نشيط و نسي أين طمرها فظنّ أنها و جهده في قطفها ، نقلها و زرعها ذهبت أدراج الرياح لكنها هي ذاتها من **سيسكنها أحفاده أشجاراً** بعد عشرات السنين .. فكن

أنت بنفسك **سنجاب بذرة الحقيقة** .. كي يعيش أحفادك في شجرتها و يتفيؤوا في ظلها و يتنعموا من ثمارها اليانعة .. فيبقى نضالك و ذكرك حياً بينهم ..

مغالطة تطور الدول

(تطورك مجرد أصفار)

= كم فلان إنسان رائع .. فهو ناجح في عمله ، ثري و ذو شخصية قوية ..

= لكنه فظ و مغرور ، يغتاب الآخرين و ينصب الأفخاخ و الكمائن لمنافسيه كي يبقى بمفرده على قمة جبل التميز ..

= حقاً ! لم أعرف ذلك عنه .. إن كان ذلك صحيحاً فهو شخص فاشل و متخلف أياً كان ما أنجزه ..

*****

كثير ما يرد هذا الحوار في حياتنا اليومية ، عندما تسقط كل إيجابيات أو إنجازات شخص ما بمجرد تجرده من الأخلاق و المبادئ الإنسانية النبيلة و القويمة فهذا **منعكس عقلي نفسي فطري** عند البشر في تقييمهم لبعضهم البعض .. و من هذا المنعكس ندخل مباشرةً في صلب مغالطتنا التالية التي نقارب فيها تطور دول العالم التي تصنف إلى بلدان عالم أول ، ثاني و ثالث تبعاً لتقدمها .. و انطلاقاً من الحوار السابق نصل إلى سؤالنا التالي البالغ الأهمية :

((**هل ما ينطبق على الفرد ينطبق على دول بحد ذاتها** ؟ **هل للأخلاق دور في تقييم تطور الدول أم أن للسياسة مقاييس أخرى مختلفة** ؟))

في الحقيقة الجواب على هذا السؤال بسيط جداً تبعاً للمنطق

الإنساني الفطري :

((**بالطبع الأخلاق هي عمود الخيمة في حياة أي فرد أو جماعة ، و إن لم تندرج ضمن قائمة مقاييس تطورهم فالقائمة باطلة و بلا قيمة ، فالقوة العمياء غير العادلة خطر حقيقي على البشرية**))

و سنقوم الآن بتفسير هذه الإجابة بمقاربة المغالطة الجديدة لنرى هل بلدان العالم الأول أو الثاني متطورة حقاً كما تقول عن نفسها في حين بلدان العالم الثالث متخلفة يعشعش الجهل فيها ؟

للقيام بذلك سنقارب تطور الدول بنفس أسلوب مقاربة تطور الإنسان كفرد و الذي يشتمل على الرباعي الذهبي التالي :

❁ **التطور العلمي** : و هو مقياس هام للتطور يكافئ عند الفرد تحصيله العملي و الثقافي ، و لاشك أن هنالك هوة عميقة بين دول العالم المختلفة في هذا المجال فدول استطاعت الهبوط على **القمر تايتن** حول **كوكب زحل** تتفوق بسنين ضوئية على دول لا تزال الملاريا و السل تحصد أرواح الملايين فيها .. أو عجزت المياه و الكهرباء عن الوصول إلى مدن و قرى كثيرة فيها ..

❁ **التطور العسكري** : و هو يكافئ عند الفرد قوة الجسد و الشخصية مع فن الرد و الدفاع عن النفس ، و أيضاً من

البديهي و الواضح وجود هوة أكبر بين دول العالم في إمكانياتها العسكرية و قدرتها على رد العدوان عنها ..

❁ **التطور الاقتصادي** : و هو يكافئ عند الفرد مستوى الدخل ، و لا تقل الهوة هنا عن سابقتيها بين دول العالم ..

❁ **التطور الأخلاقي** : و هو يقسم إلى محورين :

① **داخلي** ، وهو طريقة تعامل الدولة مع مواطنيها من حيث تأمين الحياة الكريمة لهم و منحهم الحريات الواسعة و الديمقراطية في القرار و الحكم .. و يتفوق الغرب بشكل فاضح على بقية دول العالم في هذه الناحية بلا أدنى شك مما يجعل الهجرة إلى دوله حلماً كبيراً لأغلب شعوب العالم و هذا ما يحدث بالفعل على أرض الواقع ..

② **خارجي** ، و هو طريقة تعامل الدولة مع دول العالم الأخرى سياسياً ، عسكرياً ، اقتصادياً و ثقافياً ، و الأهم هو طريقة تعامل الدولة مع الطبيعة و الأزمات العالمية البيئية ..

لا شك أن دول العالم الأول و الثاني شرقاً و غرباً تتفوق بالعوامل الثلاثة الأولى من الرباعي الذهبي للتطور على بقية دول العالم حالها حال جميع الامبراطوريات و الحضارات التي سادت العالم عبر التاريخ كالفراعنة ، الرومان ، الإغريق ، الإسبان ، المغول و غيرهم .. لكن النقطة التي تثير التساؤل الهام في مغالطتنا الحالية هي العامل الرابع و الأخير (التطور الأخلاقي) خاصة بشقه الخارجي أي كيف

تتعامل الدول المتطورة بأول ثلاثة عوامل مع بقية دول العالم الأقل حظاً منها و مع الأزمات البيئية الطارئة و الخطيرة على كوكب الأرض .. و السؤال الآخر الهام هو :

((**هل دول العالم الثالث المتخلفة عن ركب التطور في العوامل الثلاثة الأولى** ، **متخلفة أيضاً في العامل الرابع الأخلاقي أم أن لا علاقة علمية طردية بينها**))

و كتبسيط لهذه الأسئلة سنختزلها بسؤال وحيد على مستوى الفرد :

((**أيهما أفضل** .. **إنسان متطور علمياً و مالياً و ذو عضلات ضخمة و شخصية قوية لكن بلا أخلاق** ، **أم إنسان ضعيف ذو عمل متواضع** ، **محدود الدخل و بشخصية أضعف لكنه خلوق للغاية** ؟))

و الجواب على هذا السؤال كما أظن بديهي لأغلبنا .. و قد أجاب عليه كل من العالم الشهير **الخوارزمي** و الشاعر الكبير **أحمد شوقي** ..

فقد شرح **الخوارزمي** بعبقرية دور الأخلاق في حياتنا بطريقة رياضية مذهلة فقال :

((اذا كان الإنسان ذا اخلاق فهو =1

واذا كان الانسان ذا جمال فأضف الى الواحد صفراً = 10

واذا كان ذا مال ايضاً فأضف صفراً آخر = 100

واذا كان ذا حسب ونسب فأضف صفراً آخر = 1000

فإذا ذهب الواحد وهو الأخلاق ذهبت قيمة الإنسان و

أصبحت معدومة و مجرد أصفار))

و ما أروعه من شرح مبسط لدور الأخلاق في تحديد قيمة الإنسان بسبب أهميتها التي تفوق الوصف في تطور البشرية ..

أما الشاعر **أحمد شوقي** فشرح قيمة الأخلاق شعراً بنفس المغزى و المعنى عندما قال :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فقيمة الفرد أو الجماعة و حتى الدولة برمتها تقف على وجود الأخلاق و اقترانها بسلوك الفرد أو الدولة فإن غابت الأخلاق فقيمة كل تطور الفرد أو الدولة صفر عدمي ..

و من حقائق الحياة المرة أن البشر أفراداً كانوا أم جماعات إن اقتدروا تجبروا و أن **للسلطة مفعولاً يسكر كالنبيذ بل أكثر** ، و في التاريخ من الأدلة ما يشير إلى هذه الحقيقة

ففرعون مصر امتلك من النفوذ العلمي الهائل حداً وصل إلى بناء الأهرامات المعجز كما امتلك شخصية قوية و ساحرة و مالاً يضرب به المثل بغنى قارون .. لكن بعضهم طغى و تجبر على شعوبه فكانت عاقبته الغرق صريعاً في مياه البحر و سمعة سيئة كمستبد طاغٍ في صفحات التاريخ ، فلم يشفع له تطوره الهائل في باقي المجالات .. وهذا ما ينطبق على نازية أدولف هتلر ، بل حتى على امبراطوريات كاملة كالمغولية التي عربدت ، سفكت الدماء و أحرقت المكتبات فكان مصيرها الانكماش لاحقاً و العودة إلى دولة

متواضعة الإمكانيات و يضرب المثل حتى الآن بتاريخهم في الهمجية ، الدموية و البطش .. و هذا ما سيكون عليه ذكر بعض دول العالم (المتطورة) مستقبلاً التي بلغت من التطور العلمي العسكري و الاقتصادي ما لم تصله أي امبراطورية من قبل لكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً على الجانب الأخلاقي بشقه الخارجي على وجه الخصوص و ذلك ما سندعمه بالأدلة التالية الموثقة عن ممارسات هذه الدول قديماً كانت أم حديثاً :

۞**احتلال ، استعمار و غزو دول العالم الأقل تطوراً** إضافةً إلى ارتكاب المجازر بحق شعوبها ، نهب ثرواتها و استعباد سكانها ، و من الأدلة على ذلك ما يستحق تأليف موسوعات كاملة عنه و أكتفي بذكر مثالين فاضحين (غزو الإسبان لأمريكا الجنوبية ثم إبادة الهنود الحمر ، احتلال أرضهم و سرقة ثرواتهم .. و استعباد الأوروبيين للأفارقة ..)

۞ **إثارة الحروب الأهلية و العرقية و الدينية و الطائفية** في بعض دول العالم بهدف قلقلة استقرارها و إضعافها لغايات سياسية متنوعة ..

۞ **نشر الأمراض و الأوبئة أو إقامة مشاريع للتلاعب بالمناخ و إحداث أعاصير أو زلازل أو براكين** و هذا لا يزال اتهاماً بلا دليل مثبت لكن هنالك الكثير من الأدلة غير المباشرة التي توحي بحدوثه ..

۞ **الأخلاقيات و الفلسفات الاقتصادية الجشعة المتوحشة**

التي تفكر بالفرد أو الدولة بشكل أناني و لو على حساب غيرها متجاهلةً حاجة إخوتهم في الإنسانية الأقل حظاً منهم أفراداً كانوا أم دولاً

۞ **اغتصاب الطبيعة و البيئة حرفياً** عبر التجارب النووية الكثيرة أو حتى استخدام القوة النووية فعلياً في الحروب ناهيك عن دفن المخلفات النووية و غالباً في أراضي دول العالم الثالث ، أو عبر القطع الجائر للغابات و الصيد المتوحش للحيوانات لغايات اقتصادية بحتة ، و أخيراً و ليس آخراً انتهاك حرمة الغلاف الجوي للأرض بالمصانع الكبيرة و الكثيرة التي توسع من ثقب الأوزون على مدار الساعة و التي ستؤدي في المستقبل القريب إلى كوارث على البشرية جمعاء من ارتفاع شديد في درجات الحرارة ثم ذوبان جليد القطب مؤدياً إلى غرق مناطق و ربما دولاً بكاملها ..

و بعد كل هذه الأمثلة الموثقة بالأدلة و التي لا يختلف عليها اثنان كما لا يمكن تحريفها أو تزييفها في زمن العولمة الذي فضح كل شيء ، هل تُعتبر هذه الدول المتطورة ، متطورة حقاً ؟ أم أنها لا تختلف عن الامبراطوريات الكبيرة التي سبقتها في التاريخ و ستلقى مصيرها ذاته (الانقراض ، الانكماش و العودة إلى الحجم الطبيعي) كأمثال دول حالية صالت وجالت في الأزمنة الغابرة كمنغوليا ، اليابان ، إيران ، السعودية ، إسبانيا ، البرتغال ، بريطانيا ، فرنسا ، بلجيكا ، هولندا ، إيطاليا ، اليونان و غيرهم .. فبعد أن اتسعت رقعة دولهم ذات يوم على نحو شاسع أين هم اليوم ..؟ **و ما أكثر العبر و ما أقل الاعتبار !**

يتبقى لدينا في مقاربة مغالطة تطور الدول جانب واحد و هو الأهم ، مقاربة الدول غير المتطورة علمياً و عسكرياً و اقتصادياً من الزاوية الأخلاقية ..

في الحقيقة التاريخ و الحاضر يعج بالأمثلة عن التطور الأخلاقي لهذه الدول التي لم يحالفها الحظ في التطور في العوامل الثلاثة الأخرى من الرباعي الذهبي للتطور و سأكتفي بذكر ثلاثة أمثلة بسيطة عن النضوج الأخلاقي لها :

۞ عدم الاعتداء على الدول الأخرى بأي شكل من الأشكال بل على العكس تسارع هذه الدول على الدوام إلى المساعدة قولاً أو فعلاً ضمن حدود إمكانيتها في النكبات و الأزمات

العالمية ، و بمقارنة نسبية هي تقدم المعونة أكثر من غيرها من دول العالم الأول و الثاني ..

❁ احترام الطبيعة ، تقديسها و التماهي معها كحال الهنود الحمر و السكان الأصليين الآخرين حول العالم .. و بالتالي تجنب أذية البيئة أو التلاعب بتوازنها ..

❁ فلسفة التعاون و الشعور الإنساني بأخوتهم من البشر و

لعل أبرز مثال على ذلك هو **فلسفة أوبنتو** في أفريقيا التي تقوم على مبدأ :

((**أنا أكون لأننا نكون**))

أي أن تعم الفائدة على الجميع و لا يحتكرها شخص بمفرده لنفسه ، و هنالك قصة عميقة ذات مغزى مرتبطة بهذه الفلسفة تتناول أحد علماء الاجتماع الذي قام بعرض لعبة على أطفال **قبيلة كسوزا** الإفريقية بوضع سلة من الفواكه اللذيذة قرب جذع شجرة و أخبرهم أن أول من يصل منهم إلى الشجرة يفوز بالسلة كلها .. لكنه عندما أعطاهم إشارة البدء تفاجأ بهم يسيرون سوياً ممسكين بأيدي بعضهم البعض حتى بلغوا الشجرة ثم تقاسموا الفواكه من السلة .. و عندما سألهم لماذا فعلوا ذلك في حين كان بإمكان أحدهم الفوز بالسلة بأكملها لنفسه، أجابوه بتعجب : أوبنتو .. **أي كيف**

يستطيع أحدنا أن يكون سعيداً فيما الباقون تعساء ؟؟!!

و هذا سر هام من أسرار الحياة التي تجهلها المجتمعات التي تدعو نفسها متحضرة و متطورة، في حين اكتشفه أفراد قبيلة بدائية ..

فبلدان العالم الثالث تمسك بأيدي بعضها في الأزمات لتتجاوزها معاً في حين تميل الدول الغنية إلى الاستئثار بالسلة لنفسها غير عابئة ببؤس الآخرين ..

و بالمقارنة بين فلسفة دول العالم الأول و الثاني الجشعة الانتهازية و فلسفة دول العالم الثالث الإنسانية المتماهية مع الطبيعة نرى أن التطور بحق يليق بدول العالم الثالث ،

فربما كان تصنيف هذه الدول صحيحاً بشكل عكسي أي أن دول العالم الأول هي الأقل تطوراً و يرتقي التصنيف تدريجياً بعد ذلك صعوداً للأعلى لتحصد دول العالم الثالث القمة العالمية بأخلاقها المتميزة ..

*****

في ختام تحليلنا لهذه المغالطة الجديدة من الأنسب ألا نقول بعد اليوم :

= هذه الدولة متطورة لأنها بلغت مستويات عالية من العلوم أو لأنها تملك قوة عسكرية مرعبة أو لأن اقتصادها ضخم و مترقي ..

بل أن نقول :

= هذه الدولة متطورة لأنها أخلاقية .. فالأخلاق هي من سينقذ البشرية مستقبلاً من عواقب أفعال الدول المستبدة اللاأخلاقية و غير المحسوبة تجاه بقية دول العالم و تجاه كوكبنا العزيز الأرض ككل ..

و أقول بثقة و قناعة تامة أنه مع متغيرات المستقبل الحادة لن تصمد سوى الدول الأخلاقية سواءً كانت قوية أم ضعيفة فالطبيعة تنتصر لنفسها على الدوام و القوة بمفردها لا تحمي من عقابها الشديد ، و كمثال على ذلك لنعد بضعة مئات الألوف من السنوات إلى الوراء عندما ضرب نيزك ضخم

الأرض فحينها انقرضت على الفور أقوى حيوانات الكوكب و أشدها بطشاً و سطوة (**الديناصورات**) لكننا نجد أن كائناً حياً ضعيفاً و مجهرياً (**كدب الماء**) الذي لا يعتدي على أحد قد نجا و استمر بقدرته على الحياة بدرجات الحرارة المتطرفة عاليةً كانت أم منخفضةً إضافةً إلى كونه الكائن الوحيد القادر على النجاة و الاستمرار في الفضاء الخارجي كما أنه بسبب صغر حجمه لا يتأثر بالكوارث الطبيعية أياً كانت .. و الدول و الشعوب الفقيرة و الضعيفة لكن الأخلاقية ستصمد مع متغيرات المستقبل بحكمةٍ إلهيةٍ خالصةٍ في حين ستنقرض الدول القوية حالها حال امبراطوريات التاريخ التي سادت ذات يوم ، تجبرت و طغت فأعادتها السماء إلى حجمها الطبيعي ..

فكما قال النبي **محمد** :

((**إنما أتيت لأتمم مكارم الأخلاق**))

و في هذا تفضيل صريح للأخلاق على أي جانب آخر في الحياة ، كما انّ نشرها بين الناس و العمل بها يفوق التطور في أي جانب آخر من حياتنا أياً كان و مهما بلغت ذروته ..

مغالطة شيطنة الإنسان

(داروين مخطئ !)

= فلان وفي كالكلب ..

= فلان نشيط كالنحلة ..

= فلان صبور كالجمل ..

= فلان وديع كالحمل ..

= فلان سريع كالفهد ..

= فلان حكيم كالبومة ..

= فلان ملك كالأسد ..

= أثر فلان عطِر كالزهور ..

= فلان صامد يموت واقفاً كالأشجار ..

-
-
-
-

*****

هذه بعض من المقولات الشائعة التي اعتدنا من خلالها أن نمدح الإنسان بتشبيهه بالحيوانات أو النباتات .. و هنا تحط مغالطتنا الجديدة رحالها في واحة المغالطات بسؤالها الهام و الأخير :

((هل الإنسان بالفعل أفضل من الحيوان و النبات ؟ و هل الإنسان يتربع حقاً على عرش تطور الكائنات الحية كما افترض داروين من قبل ، أم أن داروين مخطئ في فرضيته ؟))

للإجابة على هذا السؤال سنحلل هذه المغالطة كما اعتدنا في هذا الكتاب بمقاربتها من عدة نقاط تصف أفعالاً معينةً للإنسان لن نجدها في أي مكان آخر من مملكة الكائنات الحية .. و لكننا سننطلق قبل ذلك من مقولة شهيرة معبرة :

((إن تحلى الإنسان بالأخلاق و القول و العمل الصالح ارتقى إلى مصاف الملائكة ، و إن فعل العكس انحدر إلى مستوى الشياطين))

و في الحقيقة هذه الصفة في الإنسان هي ما يميزه عن غيره من الكائنات الحية التي تحكمها الغريزة و تحدد سلوكها بشكل ثابت لا يتغير أما الإنسان فهو قادر على تغيير نفسه و تعديل سلوكه سلباً أم إيجاباً .. فلن نجد مثلاً حيواناً أو نباتاً يصل لمرحلة الشيطنة أبداً ، لكننا كثيراً ما نجد بشراً بلغوا ذلك المستوى من مجرمين ، سفاحين ، لصوص ، مغتصبين و نرجسيين في أغلب الحالات و لا نعمم كي لا نقع في مغالطة الشمولية مجدداً ..

نتطرق الآن إلى بعض النقاط التي تميل بالإنسان إلى كفة الشيطنة و التي لا يمكن أن نراها عند بقية الكائنات .. علماً أننا لن نتطرق إلى السلوك الإيجابي للإنسان الذي يحلق به عالياً إلى كفة الملائكة كونها ليست موضوع مغالطتنا الآن :

❁ **الحيوان يقتل عند الجوع فقط و بمقدار يشبعه فحسب** أما الإنسان فقد يقتل في حالات الشبع أيضاً و بشكل مفرط و دون سبب وجيه أو لأسباب لا تتعلق بالجوع أو العطش بل لتحقيق غايات شخصية و مكاسب فردية مادية أو معنوية و حتى على حساب جنسه البشري نفسه .. مثال القتل بدافع الميراث أو بوليصة التأمين على الحياة أو السرقة أو احتلال الأرض .. أو القتل بدافع الغيرة و الحسد كحال قابيل و هابيل و أول جريمة في التاريخ أو بدافع الثأر و الانتقام أو حتى لمجرد التلذذ و الشعور بنشوة إنهاء الحيوات كحال القتلة المتسلسلين .. و هذا كله لا يمكن أن نشاهده في عالم الحيوان أو النبات .. و كما يقول الأديب الساخر **برنارد شو** :

((عندما يقتل الإنسان نمراً يسمى ذلك رياضة ، وعندما يقتل النمر إنساناً يسمى ذلك وحشية))

❁ **الحيوان يهاجم عند تعرضه للخطر و دفاعاً عن وجوده و بقائه** ، أما الإنسان فيهاجم في حالات كثيرة لتوسيع نفوذه

، سيطرته و سلطته حتى على حساب جنسه البشري نفسه

۞ **الحيوان لا يعتدي على أفراد جنسه و نوعه** فلن نجد مثلاً أسداً يقتل أسداً ليتغذى عليه .. أما بالنسبة للإنسان فحدث و لا حرج ..

۞ **الحيوان يعمل في مجموعات و أسراب منظمة تتبع قواعد صارمة لحفظ النوع و إنجاز غاياته** ، و لا يمكن أن ترى أي فرد فيها يخرج عن المنظومة لغايات شخصية كالنحل ، النمل و الطيور المهاجرة .. أما الإنسان فيخرق الضوابط و القوانين و الأعراف الحميدة كي يحصّل مكاسب مادية أو معنوية على حساب المنظومة الجماعية ..
كاختلاس الأموال من الشركات أو سرقة الكهرباء و الماء من الدولة او تدمير الممتلكات و المرافق العامة ..

۞ **الحيوان لا يخون نوعه** فلن تجد مثلاً غزالاً ساعد الأسود أو الضباع على قطيعه مقابل الغذاء أو المنصب ، أما عند الإنسان فتجد الصديق يخون صديقه و الزوج يخون زوجته و بالعكس ، كذلك العملاء يخونون أوطانهم و كل ذلك مقابل المكاسب المادية أو المعنوية ..

۞ **المشاعر و السلوكيات السلبية كالغيرة ، الحسد ، الشك ، الغيبة ، النميمة ، الرياء ، الكذب و غيرها ..**
لا تجدها عند الحيوان أو النبات و ما أكثرها عند البشر في حياتنا اليومية..

۞ **الحيوان يمارس الجنس في فترات محددة لغاية حفظ النسل و النوع و لا يغتصب في الغالبية الساحقة من الحالات** ، أما الإنسان فيغتصب و يعتدي طول الوقت ..

و الجنس عنده من الأولويات في كثير من الأحيان و يفضله على الأخلاق ..

۞ **لا يمكن لأغلب الحيوانات أن تتخلى عن صغارها مهما كانت الظروف** بل أنها تدافع عنهم حتى الموت ، أما الإنسان فكم نسمع عن الآباء الذين تخلوا عن أبنائهم سواء قبل أن يولدوا بالإجهاض أو بعدها بتركهم على قارعة الطرقات أو منحهم للتبني .. كذلك فالحيوانات تؤمن لأبنائها كل متطلبات الحياة حتى يكبروا و يشتد عودهم فيستقلوا بأنفسهم ، أما الإنسان فكثيراً ما نسمع عن حالات التعنيف ، الاعتداء و الاستغلال بكافة أشكاله تجاه أبنائه أو التخلي عن مسؤولياته

تجاههم ..

❁ **الحيوان لا يمكن أن يسبب باختلال ميزان الطبيعة فيبيد جنساً أو نوعاً** بأكمله بل يصطاد بحساب دقيق للغاية أما الإنسان فقد سبب على خلفية جشعه و طمعه بانقراض أنواع كثيرة من النباتات و الحيوانات و أخل بتوازن الطبيعة دون رقيب أو وازع .. و الأمرّ من ذلك أنه سبب بانقراض أعراق بشرية كاملة أو شبه انقراض لها بمجازره المرعبة التي يندى لها جبين أشرس الحيوانات و ترتاع من هول فداحتها ، وحشيتها و دمويتها ..

❁ **الحيوان لا يرغم أفراد نوعه أو غيره على اعتناق عقيدته أو عاداته** .. فالكنغر لا يطلب مثلاً من السلحفاة أن تقفز ولا الأفعى تطلب من النسر أن يزحف على الأرض .. كل حيوان حرّ بما يعتقد أو يفعل أما الإنسان فهو يتدخل في قناعات غيره من البشر فيفرض عليهم دينه أو سياسته أو مبادئه ..

❁ **الحيوان و النبات يقدم نفسه قرباناً للإنسان في مراسمه العقائدية** فتذبح النعاج كأضاحٍ في الأعياد و توضع أكاليل الزهور في المآتم أو الحفلات كما يزوده بالغذاء ، الفراء ، الجلود ، العاج ، اللؤلؤ ، الأخشاب ، الزهور و غيرها على حساب حياته .. أما الإنسان فهو ليس غذاءً للحيوان إلا في حالات استثنائية يكون الإنسان فيها هو المعتدي في الأغلب.

۞ **الحيوان لا يغزو أراضي غيره** إلا إن نقله الإنسان إليها أو اضطره إلى مغادرة أرضه ، أما الإنسان فجل اهتمامه عبر التاريخ هو التوسع و السيطرة على أرض الغير من بشر أو حيوان أو نبات ..

۞ **النبات يخلص الأرض من غاز ثنائي أكسيد الكربون السام الذي يعتدي على الغلاف الجوي و يخل بميزان المناخ و الطبيعة كما يمنحنا الأوكسجين** الثمين أما الإنسان فيتطفل على غاز الأوكسجين بالتنفس و يطرح غاز ثنائي أكسيد الكربون السام بالتنفس أيضاً أو بحرق الوقود في المصانع و المركبات دون اعتبار لميزان المناخ و الطبيعة.. و هيهات ما بين المانح بلا مقابل و الآخذ بلا حياء ..

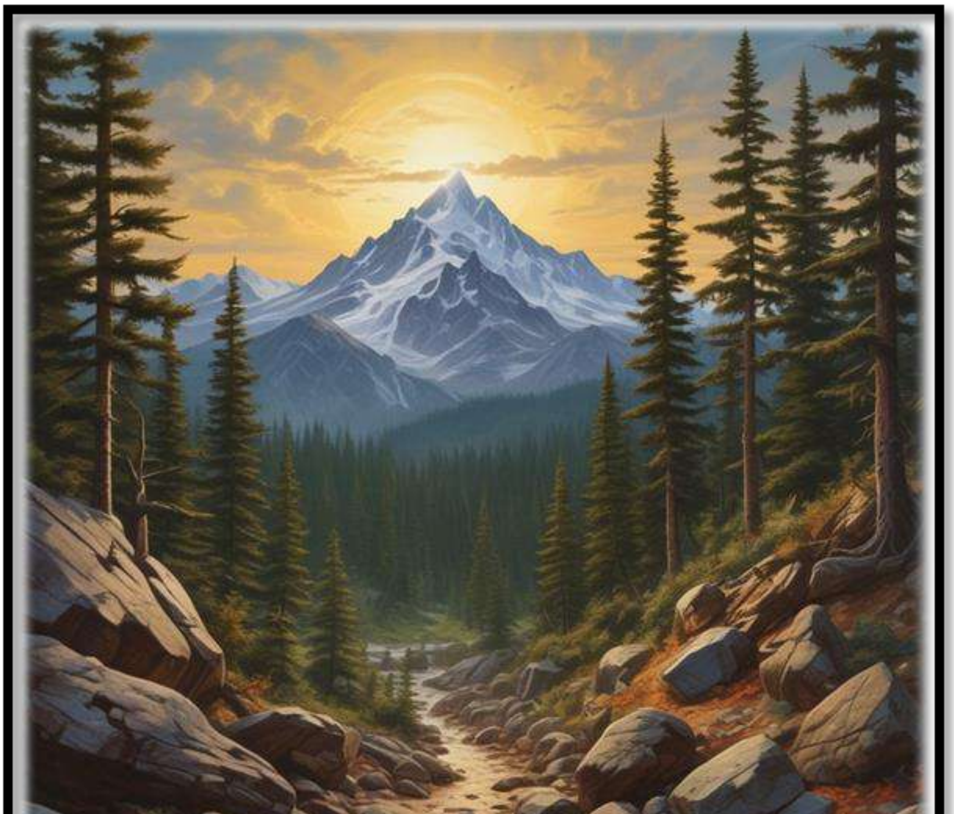

۞ **الغابات تؤمن موطناً للحيوانات و للبشر دون مقابل ،** أما الإنسان فلا يقدم شيئاً مماثلاً لغيره بل يقتطع الغابات بجشع لا حدود له كي يبني بيوتاً ، مدناً و قرىً هو المستفيد الوحيد منها متسبباً بهجرة آلاف الحيوانات و خسارتها لموطنها .. و حارماً الأرض من الغطاء النباتي و غاز الأوكسجين .. في هذا السياق نذكر قول شاعر المهجر **إيليا أبو ماضي** في توصيف هذه النقطة:

((**من ذا يثيب زهرةً فواحةً**

أو من يثيب البلبل المترنما))

فالطبيعة تمنح دون مقابل أو ثناء أما الإنسان فإن قام بفعل الخير كثيراً ما تكون هناك نوايا و مصالح خفية وراء ذلك ..

❁ الإنسان يستعبد الحيوانات و النباتات و حتى أخاه الإنسان كالرق لمصلحته الشخصية و خدمته فمثلاً يقطع الأشجار لبناء بيوت يسكنها أو يأسر حيوانات ليستغلها أو حتى ليتمتع بمنظرها، و هيهات أن تجد ذلك في قاموس الحيوان أو النبات ..

و القائمة تطول من النقاط المقارنة بين الإنسان و الحيوان أو النبات ، و سأكتفي بما ذكرته على سبيل المثال لا الحصر ..

فهل يعتقد داروين بعد الآن أن الإنسان يتربع على عرش التطور الحيوي ؟ لا أعتقد ..

من الجدير بالذكر التنويه إلى أن الإنسان و منذ القدم

احترم الحيوانات ، قدسها و أدرك تميزها عنا في نواحٍ كثيرة كما نرى في الميثولوجيا الفرعونية و الهندوسية و عند الهنود الحمر و غيرهم حيث صورت الآلهة برؤوس حيوانات كالصقر ، ابن آوى ، الفيل ، الثعبان أو بالعكس كتمثال أبي الهول الشهير بجسد أسد و رأس إنسان ..

لكن إنصافاً للحق فإن موضوع الغريزة التي تحكم الحيوان و النبات و تحدد سلوكه طوال حياته مقابل حرية التفكير و الاختيار للإنسان هي ما يميز الإنسان عن غيره ، إذ لا يمكن للحيوان أو النبات أن يرتقي لمصاف الملائكة أما الإنسان فبوسعه القيام بذلك إن أراد رغم صعوبة الطريق و مشقته و وعورته ..

*****

في ختام مقاربتنا لمغالطة (**شيطنة الإنسان**) و أنه اعتلى هرم التطور في حين أنه ينحدر بأفعاله أحياناً إلى مستوى الشياطين و بأساليب ترتاع لها أشرس الحيوانات في الطبيعة .. من الأنسب ألا نقول بعد اليوم :

= الله سخّر لي الطبيعة بما فيها لأفعل بها ما أشاء ..

بل أن نقول :

= الله سخّر لي الطبيعة لسد احتياجاتي بتوازن لا يخل بميزان البيئة و المناخ .. و تذكر مقولة الرسول محمد :

(دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض)

فتخيل أن الله منع الاعتداء على هرة فما قولك بالاعتداء الوحشي على الحيوانات بالصيد الجائر أو النباتات بقطع الغطاء النباتي دون حساب أو حتى على أخيه الإنسان ..

و ألا نقول :

= أنا أفضل من النباتات و الحيوانات بمسافات ضوئية ..

بل أن نقول :

= إنني في حال انصعت لرغباتي و شياطين نفسي سأصبح في مستوى أدنى بمسافات ضوئية من الحيوانات و النباتات

و ألا نقول :

= لقد ميزت عن بقية الكائنات بالعقل ..

بل أن نقول :

= لقد ميزت عن بقية الكائنات بالإرادة مع الخيار و القرار الذاتي فهي محكومة بغريزة تحدد مسار حياتها فلا تحيد عنه ، أما العقل يا صديقي و يا صديقتي فقد أثبت العلم وجود حيوانات لا يقل ذكاؤها عن الإنسان إن لم يتفوق عليه في نواحٍ كثيرةٍ كالغربان ، الدلافين ، الأخطبوط .. و غيرها

بذلك نجد أنّ داروين مخطئ في نظريته من الجهتين ، فالإنسان كما أثبتنا بالأدلة العلمية ليس بأفضل من الحيوان و النبات بشكل مطلق من جهة ، و من جهة أخرى فمن خلقنا كبشر في هذه الأرض هو الله تعالى لإعمارها بالعدل و علينا كواجب و تكليف منه أن نلتزم بهذه الوصية عبر المحافظة على اعتدال ميزان الطبيعة لأن في ذلك حفاظ علينا أنفسنا .. و أن نكون رحماء بين بعضنا و على الحيوانات و النباتات من حولنا .. أي باختصار أن نلتزم بالمقولة التي ذكرناها في بداية المغالطة :

((أن نرتقي بأفكارنا و أقوالنا و أفعالنا إلى مصاف الملائكة و ألا ننحدر بها إلى مستوى الشياطين))

و إحدى الوسائل لبلوغ ذلك ألا نقع في شرك المغالطات التي

نقاربها في هذا الكتاب المتواضع و غيرها من مغالطات نأمل بمقاربتها في كتب لاحقة ..

مغالطة الألم و الموت

(جرس الإنذار)

= هل سمعت أن فلان مات ؟

= أجل رحمة الله عليه ، و كيف توفى ؟

= بطريقة بشعة للغاية .. بحادث سير حيث اصطدمت سيارته ليلاً بصهريج وقود مما سبب انفجار الصهريج و تفحم المركبتين معاً بمن فيهما ..

= يا ساتر .. كم هي ميتة مؤلمة .. ماذا فعل في حياته كي يستحق هذه النهاية المأساوية المفعمة بالعذاب .. ؟!

= بالفعل ، لا بد أن غضب الله عليه شديد ..

*****

في هذا الحوار الدائر بين صديقين حول وفاة أحد معارفهم نواجه مغالطة مزدوجة يقع فيها كثير من الناس، **الشق الأول** منها هو ربط الكوارث و المصاعب التي نتعرض لها في حياتنا بسوء أفعالنا و غضب الله علينا .. و هي من أشيع المغالطات عند البشر لكنها ليست موضوع نقاشنا الآن و سنتطرق لها لاحقاً إن شاء الله في مغالطة معزولة خاصة بها لوحدها .. أما **الشق الثاني** فهو موضوع حديثنا التالي و

كيف أنّ الناس تخلط عن جهل و غير وعي بين

المظهر و الشعور .. فنقول مثلاً : (يا رباه لقد سقط فلان من الطابق الأخير و تهشم جسده تماماً ، كم هذا مؤلم ؟) في حين نقول بالمقابل : (لقد سقط فلان من الطابق الأول و كُسر حوضه فقط ، لقد نجى من موت شنيع و مؤلم بحق !)

و تكمن المغالطة الراهنة بين هاتين الجملتين (**الربط بين**

فداحة المشهد و شدة الألم) و سنقوم عبر السطور التالية بمقاربتها من زاويتين :

◈ **الزاوية الأولى** : أن الحوادث المميتة كالسقوط من شاهق او حادث السير المروع أو التفجيرات و كثير غيرها غير مؤلمة البتة على عكس ما يشعر الناس تجاهها ..

فالدماغ يتوقف عن العمل بغياب الوعي أو الموت النهائي قبل أن تسنح الفرصة للمصاب أن يتألم حتى .. أما الحوادث غير المميتة كالجروح ، الكسور ، الرضوض و غيرها فتسبب أذيات مؤلمة للغاية بحفاظ المصاب على وعيه و الوعي هو توأم الألم ..

و من الهيّن علينا توقع أن البشر تصف الحالة الأولى بأنها ألم مهول لأن مظهر الحالة مهول بحد ذاته من تفجير أو تهشم ، في حين تصف الحالة الثانية بالحادث البسيط كون الأذية محدودة و المشهد بسيط .. و الخلاصة أن الألم يتناسب عكساً مع شدة الحادث و حتى عندما يبلغ درجات

شديدة فإن المصاب يغمى عليه من شدة الألم ليتوقف الألم بذلك .. فتكوين الإنسان محسوب بدقة بحيث أن لكل شيء غاية و سبب يكون فيها الهدف النهائي من كل شيء هو مصلحة الإنسان لا غير ..

◈ **الزاوية الثانية** : التمييز بين الألم و الموت .. **فالأول هو شعور بشري واعٍ كهبة إلهية لنا كي نتجنب الوصول إلى الثاني (الموت)** فالألم هو الضوء الأحمر و جرس الإنذار الذي يخبرنا بوجود اضطراب ما في الجسم علينا معالجته و تصحيحه تجنباً لخسارة حياتنا .. و طالما أنك تتألم فأنت على قيد الحياة ..

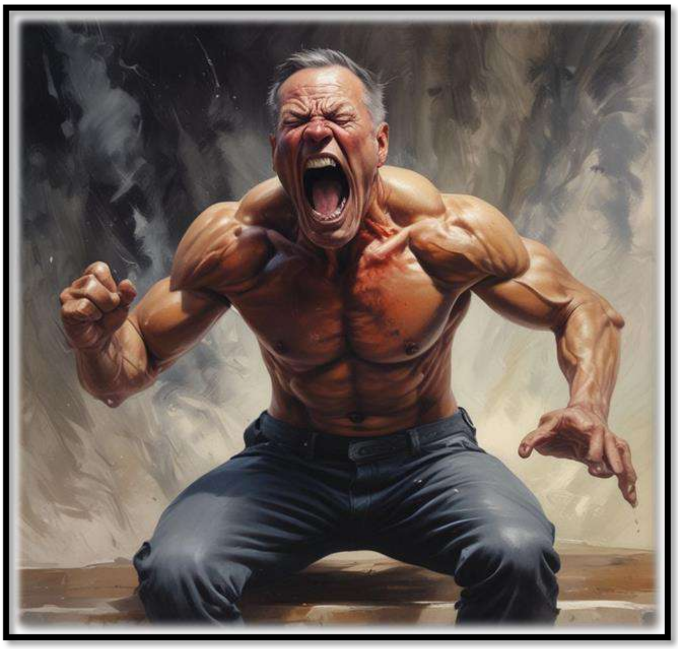

أما الموت فهو تجربة غير مؤلمة على الإطلاق بل هي رصاصة الرحمة التي تقتل الألم بشكل نهائي فيتوقف

الجسد عن الإحساس في جزء من الثانية .. و ذلك ما عبر عنه الإمام **علي بن أبي طالب** بقوله :

((استهينوا بالموت فإن مرارته في خوفه))

و بالفعل القناعة بأن الموت مؤلم هو شيء مكتسب غير منطقي نتج عن أمرين هامين ، **الأول** جهلنا بتجربته كوننا لم نختبره من قبل إذ لم يعد أحد من الموت كي يخبرنا عن ماهيته ، و **الثاني** أننا نقرن الموت بالمشهد المهول القاسي الذي يحيط بكثير من حالاته كما ذكرنا في الحوار بين الصديقين في مستهل هذه المغالطة .. لكن إن نحن قاربنا موضوع الموت بطريقة علمية و عقلانية نجد أن الموت هو توقف آني للجسد عن العمل تماماً بما في ذلك المشاعر

الإنسانية و بالتالي الموت تجربة يسيرة غير مؤلمة يرحل فيها الإنسان بسلاسة و سلام على خلاف ما يحيط به من مظاهر قاسية يستقبلها الشهود الأحياء بمشاعرهم الجياشة ، فهنا يقوم الشهود بإسقاط مشاعرهم المؤلمة و الفزعة بشكل غير منطقي على الميت نفسه الذي لا يشعر بشيء في الحقيقة .. كما أنّ الموت لا يختلف بشيء عن النوم أو التخدير ، هل سبق لك و أن تألمت عندما غفوت أو تم تخديرك لإجراء عمل جراحي من قبل !؟

و هنا نستذكر مقولة **أسماء بنت أبي بكر الصديق** :

((**إذا ذبحت الشاة فالسلخ لا يؤلمها**))

و هي مقولة منطقية علمياً تماماً تدعم ما سبق و ذكرناه بأن الموت انتهاء لأي شعور بشري حيث تغادر الروح زنزانتها في حين يبقى الجسد جماداً كالصخر لا يضره أياً

تفعله به .. كحال الجثة التي تحترق و تتفحم بعد التفجير فالمظهر مرعب و مؤلم بالنسبة للشهود على الحادث لكنه غير مؤلم البتة بالنسبة لصاحب الجثة الذي فقد إحساسه بالغياب عن الوعي أو الموت ..

و متى ما تأقلم الناس مع هذه الحقيقة العلمية هان عليهم الموت و لم يعد مخيفاً على الإطلاق .. كما كان يحدث عند الأضاحي و القرابين البشرية لحضارات الهنود الحمر في الأمريكيتين من المايا ، الإنكا و الأزتيك .. حيث كانت الأضحية البشرية تسلم نفسها بطواعية و رضا للشخص الذي سيذبحها فينحرها بهدوء دون أي ألم من قبلها و تفارق الحياة آنياً ، و من يشهد ذلك الاحتفال الديني يفهم تماماً سهولة الموت و بساطته على خلاف ما هو شائع بين الناس.

فالنحر يتم بجزء من الثانية ثم تنقطع التروية عن الدماغ فتفقد الأضحية وعيها ..

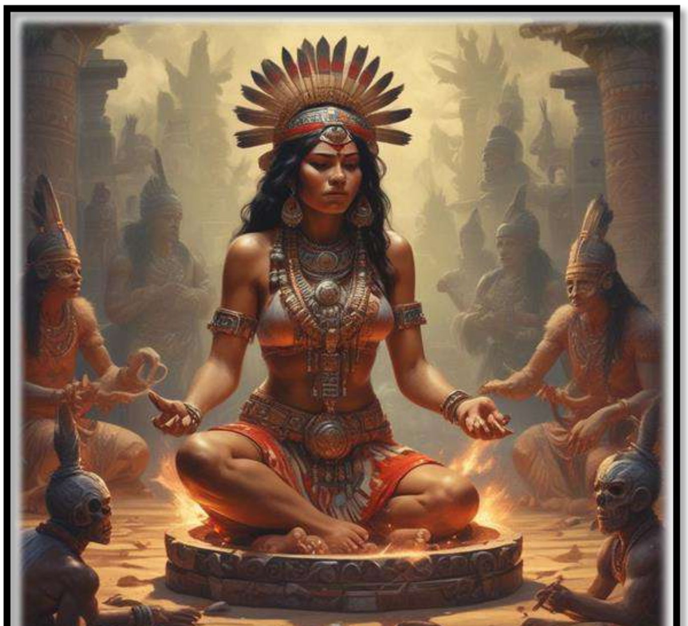

و في الحقيقة أن ما ينطبق على مفهوم الموت ينطبق على مفهوم الألم بحد ذاته .. فجزء كبير من شدة الألم هو وهمي نابع من الخوف من عواقب الألم من جهة و من منظر العامل المسبب للألم من جهة ثانية كالحرق أو دماء الجرح أو العظمة البارزة من الكسر ... و إن أحكمنا سيطرتنا على مشاعر الألم عند حدوثه فإننا سنقلل كثيراً من شدته .. و أستذكر هنا من تجربتي الشخصية كطبيب حادثة جرت لي في إحدى المشافي عندما أتاني جندي شاب مصاب في الحرب بلغم و قد قطعت ساقه و فصلت عن فخذه فلم يعد يربطها به سوى الشريان .. فقد كان الجندي هادئاً و مستكيناً لحاله ، الأمر الذي رأيت نقيضه تماماً عند جنود بإصابات أقل و هم يصرخون بشدة من الألم ..

لنتوصل إلى نتيجة هامة في مغالطتنا الراهنة :

((**الألم هو حالة نفسية قبل أن تكون جسدية ترتبط بقوة بالمشهد المصاحب للألم .. فكلما زادت قسوته زاد شعورنا بالألم المصاحب كثيراً على نحو غير علمي أو منطقي و هذا ما ينطبق بدوره على الموت بحد ذاته**))

و في الطب الكثير من الأدلة على هذه النتيجة ، فعندما تخبر المريض عمداً أن الإجراء الطبي الذي ستقوم به مؤلم سيتشنج و يتألم بقوة ، و بالعكس إن أخبرته أنه إجراء بسيط يسبب ألماً خفيفاً سيتقبل الموضوع برحابة صدر و يتألم قليلاً و لو كان الإجراء مؤلماً فعلياً على أرض الواقع ، بدءاً من حقن إبرة الدواء و انتهاءً بأكبر العمليات الجراحية .. و كما قال شيخ الأطباء **ابن سينا** :

((**الوهم نصف الداء ، و الاطمئنان نصف العلاج ، و الصبر أول خطوات الشفاء**))

و ربما سمع كثير منا قصة الشخص الذي شرب كأساً من النبيذ فمازحه صديقه أن النبيذ مسموم ، ليسقط ميتاً على الفور ، و في هذا مؤشر على قوة تأثير الوهم على الإنسان و الذي قد يصل به إلى درجة الموت وهماً .. و هذا ما

ينطبق في مغالطتنا على مفهومي الألم و الموت .. و لقد لخّص شاعر العصور الوسطى الإنجليزي **جيفري تشوسر** ذلك بمقولته الشهيرة :

((يا لقوة الوهم ! الناس سريعو التأثر لدرجة أنهم قد يلقون حتفهم من مجرد خيال))

إذاً الألم موضوع نسبي يتعلق بعوامل عديدة على رأسها المشهد المصاحب له أو التوقع المسبق لشدته ، و هو هبة ربانية تحمينا من تفاقم الأذية و خسارتنا لحياتنا إن لم تعالج .. و أكبر دليل على هذه الحقيقة حالة طبية تعرف ب

((متلازمة عدم الشعور بالألم Congenital CIP Insensitivity to Pain)) و فيها يفقد المصاب الشعور بالألم تماماً و قد يظن البعض أن هذه نعمة من الله لكن الحقيقة على نقيض ذلك ، فمتوسط عمر المصابين بهذا المرض قصير بسبب الأذيات و الانتانات الكثيرة التي تصيب جسدهم دون أن يدركوا ذلك و التي تتفاقم و تودي بحياتهم بعد فوات الأوان .. كما تكون حياة المريض به معقدة للغاية إذ يقوم بعدّ أسنانه وتفقدها واحداً تلو الآخر لمعرفة إن سقط أو تسوس أحدها، و يفحص كامل جلد جسده لتحريّ وجود حروق، جروح، أو رضوض .. كذلك يتأكد من سلامة كامل مفاصله، فيحركها واحداً واحداً بحثاً عن خلوع، فكل أذى قد يحدث دون أن يشعر... و هذه الإجراءات يقوم بها على مدار الساعة على نحو مؤلم نفسياً بشكل يفوق الألم الجسدي الذي حرم منه بأضعاف مضاعفة ..

*****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا السابقة ، مغالطة : (**الألم و الموت**) الأحرى بنا بعد الآن ألا نقول :

= فلان مات ميتة شنيعة مفعمة بالألم ..

بل أن نقول :

= كلما كانت الحوادث عنيفة أكثر كان الألم المصاحب لها أقل لينتهي تماماً إن توفي المصاب .. و الألم المهول هو مجرد إسقاط لشعورنا بفداحة المشهد على الميت ..

و ألا نقول :

= لا أريد أن أتألم أكثر في الحياة ..

بل أن نقول :

= الألم من أكبر النعم الإلهية فهو جرس الإنذار الذي يشير إلى وجود خطأ ما نفسي أو جسدي علينا تداركه و علاجه للمحافظة على حياتنا .. و الحمد لله على كل شيء سلبي قبل أن يكون إيجابياً ، فحكمة الله لا حدود لها و هو يعلم و نحن لا نعلم .. و قد خلقنا في أحسن تقويم .. بحيث أنّ كل شيء يجري بهدفٍ نبيل و غاية سامية مهما تذمرنا منه و بدا لنا مؤذياً أو سلبياً ..

لذا تقبل الأذى الذي تتعرض له برحابة صدر و أحكم السيطرة على مشاعرك تجاهه فإنّ ذلك يخفف كثراً من شدة الألم المصاحب له .. و استهن بالموت و لا تخف منه فهو عملية آنية تحدث في جزء من الثانية و ينتهي معها كل شيء .. أما المشاهد المروعة التي قد تصاحبه فهي مربط الفرس في مغالطتنا و مجرد وهم مؤلم في أدمغتنا نسقطه على المصاب أو المتوفي كحالة مأساوية ترتجف القلوب من هولها .. و هي على نقيض ذلك في أغلب

الحالات ..

و أخيراً عندما سيموت كل منا في يومه الموعود سيدرك أكبر حقائق الحياة :

((**أكثر شيء قلقت منه طوال حياتي كان أسهل تجربة عشتها في حياتي .. إنه الموت نفسه**))

مغالطة النار الإغريقية

(برجك من حجارتهم)

= لقد تعبت من كثرة الحسّاد من حولي .. إنهم ينصبون لي المكائد في كل مكان كما يتحدثون عني بالسوء بين الناس .. و أخشى في النهاية أن يذهب ذلك بسمعتي و يدمر نجاحي .

= كيف يمكنني النجاح بوجود حيتان الحسد في كل مكان من حولي ؟! .. لا أقوى على المتابعة أكثر..

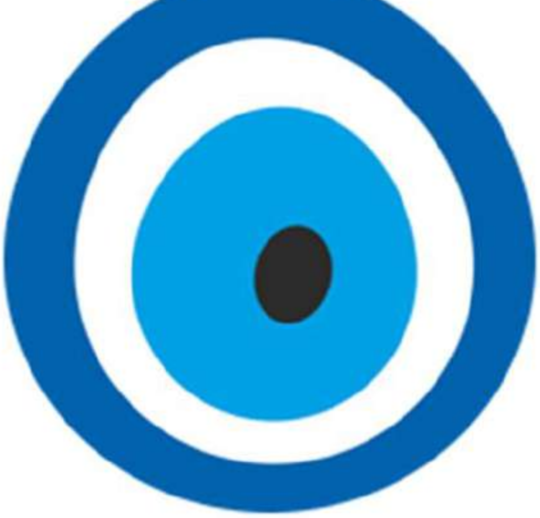

*****

أغلبنا قال هذه العبارات ذات يوم عندما بلغنا ذروة النجاح في توجه ما من الحياة ، فبدأ الحساد يتكاثرون من حولنا كالجراثيم و ينخرون في قواعد النجاح الذي حققناه ، لدرجة أننا اقتنعنا بأن استمرارنا في نجاحنا بات مستحيلاً فأعلنا الاستسلام ، و هنا يكمن مربط الفرس في مغالطتنا الجديدة

هذه .. مغالطة (**النار الإغريقية**) .. و سؤالها الجوهري التالي :

((**هل حقًا حسد الناس لنا على نعمتنا أو نجاحنا هو أمر يستدعي القلق و التعب و الاستسلام ، و سيتمكن بالفعل من تدمير أسس نجاحنا ، أم أن له إيجابيات دفينة نجهلها** ؟))

و الجواب الوجيز على هذا السؤال هو :

((**الحسد بحد ذاته نعمة إلهية لنا إن تمكنا من قولبتها بتدوير الزوايا و رؤيتها من منظور آخر**))

كيف ذلك ؟ سنحاول تفسير هذا الجواب عبر النظر إلى الحسد و محاربة الناس لنجاحنا من أربع زوايا لافتة مزدانة بأبيات شعر فذّة توصّف الحالة بدقة :

◈ **الزاوية الأولى** : الحسد بحد ذاته دليل دامغ على نجاحنا و تميزنا ، فالفاشل و بشكل مؤكد لن يحسده أي إنسان ، و بذلك فإنّ الحساد يمنحوننا شهادة مختومة بألسنتهم بأننا نجحنا في مجال عملنا .. و هذا ما أوجزه الشاعر العبقري **المتنبي** ببيت واحد من الشعر :

وكيف لا يُحسد امرؤٌ علمٌ

له على كل هامة قدمٌ

فالحسد هو قرين الناجحين لا غير ..

◈ **الزاوية الثانية** : الحساد دوماً يظهرون نقاط قوتنا بأبهى صورة لأنها هي من تثير حسدهم ، فيلفت ذلك انتباهنا إليها لنعززها و نقويها كما أنه يلفت نظر الآخرين لها ، كذلك فهم يلقون الضوء بقوة على نقاط ضعفنا لأنها المدخل الذي يسلكونه لتوهين عزيمتنا .. مما يمكننا بسهولة من رأب صدوع الضعف و تحسين مكامن الوهن في حياتنا .. لذا قيل :

((**رحم الله إنساناً أهداني عيوبي**))

و من كالحاسد يلفت نظرك إلى عيوبك و إن كانت غايته أذيتك .. و قد أبدع الشاعر **حبيب الطائي** في وصف هذه الزاوية بقوله :

وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ

طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت

ما كان يعرف طيب عرف العود

فكلام الحساد يبرز محاسنك بأبهى صورة .. و الله إذا أراد رفع ذكرك سلط الحساد على نجاحاتك كي تبرز و تسطع أكثر بين الناس ..

◈ **الزاوية الثالثة** : الناس ربما تصدق كلام الحاسد المسيء عنك في البداية لكنهم عندما يتعرفون عليك و على

حقيقة معدنك سيكتشفون زيف ادعاءاته فتنقلب مشاعرهم السلبية تجاهك إلى مشاعر إيجابية جياشة ، ثابتة و محنّاة بالتعاطف المميز .. فذكرك سيبقى و ذكره إلى فناء ، و تمتّع بجمال و عمق أبيات الشاعر **الشريف المرتضى** التالية التي تختصر هذه الزاوية :

ومن السعادة أن تموت وقد مضى

من قبلك الحساد والأعداء

فبقاء من حُرم المراد فناؤه

وفناء من بلغ المراد بقاء

و مسار الحسد موازٍ لتطور النجاح و يشبه دورة القمر يبدأ صغيراً كمحاق ثم يكبر تدريجياُ حتى يبلغ الذروة بدراً مع قمة نجاحك و مجدك و هنا تشتد أزمة الحسد حتى تنفرج ليبدأ بالانكماش لاحقاً تدريجياً حتى يعود محاقاً من جديد و ينتصر نجاحك بين الناس على مكائد حسادك عندهم ..

و هذا المسار لخصه المهاتما العظيم **غاندي** بجملة واحدة تختصر تعامل الحساد و الأعداء مع نجاحك :

((**في البداية يتجاهلونك** ، **ثم يسخرون منك** ، **ثم**

يحاربونك ، ثم تنتصر))

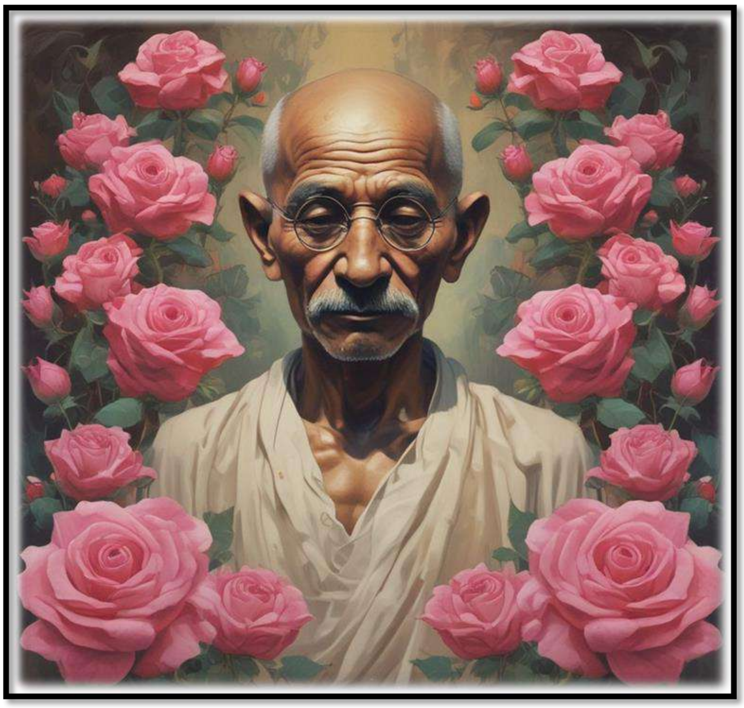

◈ **الزاوية الرابعة** : و هي الأهم ، الحاسد لا يستمر ، فسرعان ما يتعب من حسده و آلامه النفسية التي تخلقها نجاحاتك له إضافةً إلى امتعاض الناس منه بسبب إيذائه لك و افترائه عليك فتهتز صورته في اذهانهم و ترسخ صورتك الناجحة الساطعة في عقولهم .. فمشاعر الحسد كالنيران التي تلتهم صاحبها و سرعان ما تفنيه و تحيله رماداً منثوراً في فضاء نجاحك ، و لا أدق من وصف ذلك من أبيات الشاعر **ابن المعتز** :

اصبر على كيد الحسود

فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها

إن لم تجد ما تأكله

فإن لم يجد حسادك تأثيراً لأفعالهم المسيئة بحقك عليك

ستلتهمهم نيران الحسد من داخلهم .. فكل ما عليك فعله هو الصبر و الثبات مع تعزيز نقاط قوتك و تحسين مكامن الضعف لديك ..

و من مقاربة هذه المغالطة من الزوايا الأربعة السابقة نجد

أن حسد الناس لك هو بحد ذاته و بالفعل نعمة إلهية ، لكن عليك التعامل معه بالشكل الصحيح ، فاعتبر أن الحساد يرمون نجاحك بالحجارة ، لذا استخدم هذه الحجارة لبناء برج عالي لا يطالك أحد فيه .. أي حول طاقتهم السلبية إلى طاقة إيجابية و وقود لنجاحك ..

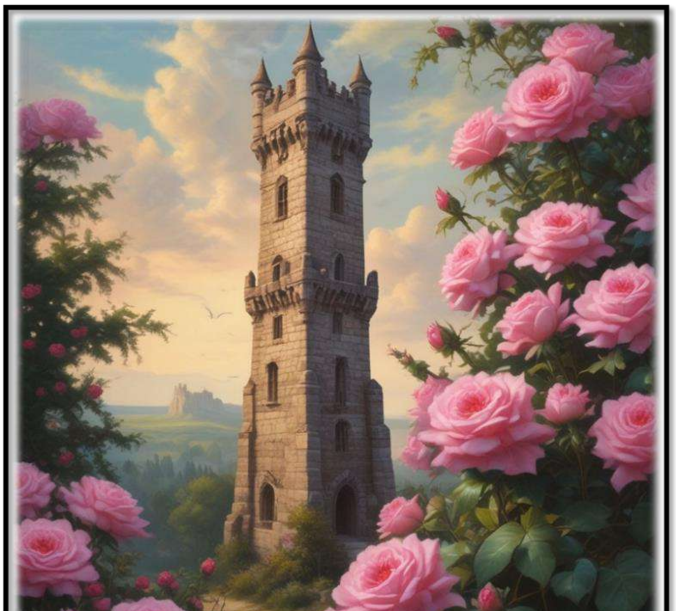

و كن كالنار الإغريقية كلما حاول الأعداء إطفاءها بالمياه زادت لهيباً و تألقاً لتلتهم الحساد فيتهاووا على قارعتي الطريق و تمضي قدماً في نجاحك رافعاً على كتفيك مقولة :

((الكلاب تعوي و القافلة تسير))

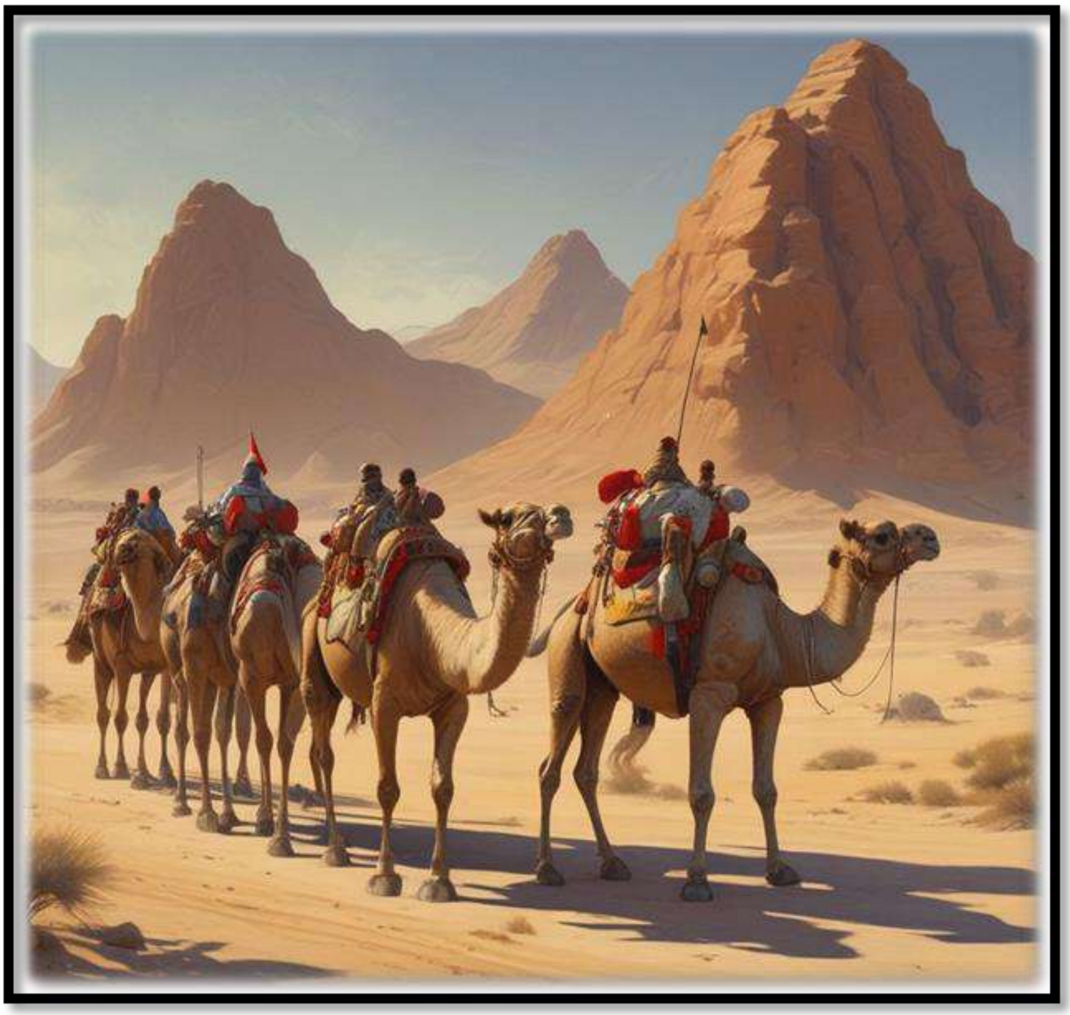

نطوي صفحة مقاربتنا الوجيزة لهذه المغالطة بقصة معبرة معجونة بالحكمة عن مفهوم الحسد :

{ يروى أنّ بدويّاً دخل حياة الخليفة المعتصم فأعجب به و قرّبه منه، حتى إنه جعله نديما له، لدرجةً بات الأعرابي فيها

يدخل عليه من دون استئذان ..

وكان للخليفة وزير شديد الحسد ، غضب من الأعرابي و منزلته الجديدة عند الخليفة ، فلم يحتمل رؤيته حوله ، لذا نوى التخلّص منه و بيّت له شراً و مكيدةً بأن صار يتلّطف إلى البدوي ويقرّبه منه، حتى دفعه إلى زيارته في منزله، و عزمه على الغداء بعد أن أكثر من الثوم في الطعام ، فلما انتهى البدوي منه حذّره الوزير من الاقتراب من الخليفة إذ سيشم رائحة الثوم من فمه فيمتعض منه ..

ذهب الوزير لاحقاً إلى الخليفة فخلا به، وقال له: يا أمير المؤمنين إن البدوي يقول عنك للناس: (**إن أمير**

المؤمنين ذو رائحة نفس كريهة)، فلما دخل البدوي كعادته على المعتصم، غطى فمه بكمه حرصاً منه ألا يشم الخليفة رائحة الثوم، و لما رآه المعتصم على هذه الهيئة قال في نفسه: (**إن الذي قاله وزيري عن هذا البدوي صحيح**)، فأمر من فوره بإرسال كتاب إلى أحد عماله جاء فيه: (**إذا وصل إليك كتابي هذا فاقطع عنق حامله**) ثم دعا البدوي، أعطاه الكتاب، وقال له: (**امض به إلى فلان**، **و عد إليّ بالجواب**) ..

أطاع البدوي أمر الخليفة على الفور برحابة صدر، جاهلاً بما بيّته له الوزير الذي رآه حاملا الكتاب، فقال في نفسه :

(**لا بد أن هذا البدوي سيكسب المال الوفير من هذا الكتاب**) فطمع بالمال ، لذا قال له : (**ما رأيك يا صديق أن أريحك من هذا التعب الذي سيلحق بك جراء السفر فأوصل الكتاب عوضاً عنك**، **وسأعطيك فوق ذلك ألف دينار**) ، فأجابه الرجل : (**أنت الوزير**،

وسأفعل ما تراه مناسباً) ثم أعطاه الكتاب الخليفة و أخذ هو المال ..

اتجه الوزير بالكتاب إلى عامل الخليفة، وسلمه إياه، فلما قرأه أمر من فوره بقطع رقبة الوزير..

بعد عدة أيام لاحظ الخليفة غياب البدوي و الوزير فسأل عنهما، و أُخبروه بأن الوزير لم يشاهد منذ أيام، أما البدوي فلا يزال مقيما في المدينة، فاستدعى الخليفة البدوي ليستفسر منه عما حصل، عندها أخبره البدوي بما اقترحه عليه الوزير بموضوع الكتاب ، فلما علم البدوي بقصة الثوم و محاولة الوزير الإيقاع بينه و بين الخليفة ابتسم و قال :

((لله در الحسد ما أعدله! ، بدأ بصاحبه فقتله)) }

و لا عبرة أكبر من هذه القصة لتعلمنا بمصير الحساد كيف يقعون في شر أعمالهم ، و يحترقون بنيران حسدهم ، في حين ينجي الله الإنسان المجتهد الناجح فيزيده نجاحاً ..

*****

في ختام مقاربتنا لمغالطتنا الجديدة **(النار الإغريقية)** ، من المستحسن بعد الآن ألا نقول :

= لقد أُنهكت من أذى الحساد و بات نجاحي عبئاً هائلاً فوق كتفيّ لا يمكنني تحمله .. سأستسلم و أنهي هذه المعاناة ..

بل أن نقول :

= إن الحسد بحذ ذاته نعمة تؤكد بلوغ مرادي بالفعل ، كما أنها تلقي الضوء على سلبياتي لأتفاداها و إيجابياتي لأعززها ، و أفضل رد على الحساد هو استمرار القافلة قدماً دون الالتفات لمكائدهم فنيران الحسد ستلتهم أصحابها بشكل مؤكد كمصير يليق بهم ..

ستبقى الشجرة المثمرة ترجم بالحجارة حتى تشكل هذه الحجارة نفسها جداراً يحيط بها و يحميها ..

اجعل نجاحك يتأجج كالنار الإغريقية التي لا تزيدها مياه

الحساد سوى لهيباً و سطوعاً و توهجاً ..

مغالطة لا أحد غيرنا

(حبة الرمل)

= هيا يا طلاب ، قوموا بالتناوب بالنظر تحت المجهر على شريحة اليوم .. إنه يمثل عينة غزيرة بالجراثيم المتنوعة .. و سنبدأ منك **ملهم** فأنت أكثر الطلاب فضولاً في الصف .. و أتحرق شوقاً لمعرفة تعليقك عما سترى ..

تقدم ملهم من المجهر و ألقى نظرة على الشريحة ثم ابتسم بدهشة ..

= ياه أستاذ برهان ، شيء يثير الدهشة .. كيف يمكن لشريحة صغيرة كهذه أن تحوي هذا الكم الهائل من الجراثيم متعددة الأشكال و غير المرئية .. إن ذلك يمنحني شعوراً مربكاً ..

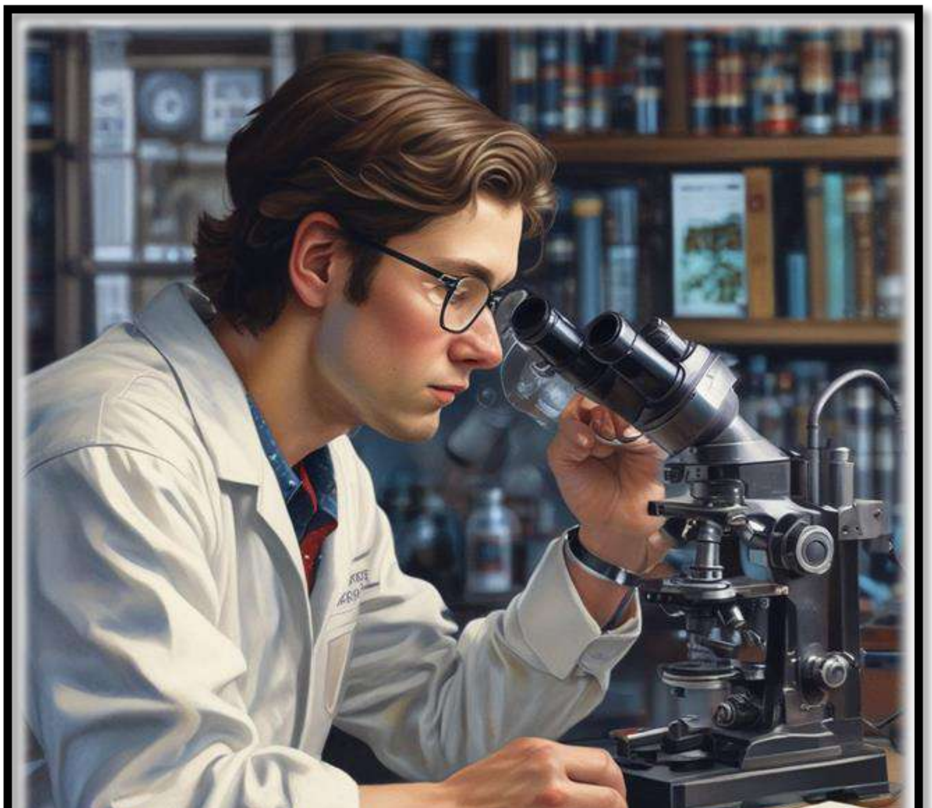

= بالفعل هو كذلك ، و تعليقك عما رأيت ؟

= في الحقيقة ، أول شيء خطر في بالي أن هذه الجراثيم تعتقد بأن الشريحة هذه هي الكون برمته بالنسبة لها و بأنه لا شيء يوجد خارجها ، دون أن تعلم بأنها مجرد شريحة صغيرة في مختبر واسع من بلد أوسع في كوكب شاسع من كون فسيح يتمدد باستمرار !! و بأن هنالك مليارات من الجراثيم الأخرى في كل مكان حولها ..

= صدقت .. تعليق مبدع كعادتك و تفكير خارج الصندوق أو بالأحرى خارج الشريحة .. ننتقل إلى الطالبة سالي و تعليقها على ما ستراه ..

*****

من تعليق الطالب المجدّ ملهم سننطلق في مقاربة مغالطتنا الجديدة و هي مغالطة (**لا أحد غيرنا**) و التي سنقارب فيها السؤال الهام التالي :

((هل هذا الكون الشاسع مقتصر على وجودنا نحن البشر كجنس واعٍ وحيد فيه ؟ أم أنّنا نعيش على شريحة كالتي رآها التلميذ ملهم تحت المجهر مفترضين أن لا غيرنا في المحيط ، في حين أنّ العالم من حولنا في الحقيقة يعجّ بأجناس واعية

أخرى على كواكب بعيدة فيه))

و في الحقيقة هذا السؤال طُرح سابقاً و منذ عقود من قبل العالم الأمريكي الإيطالي **إنريكو فيرمي** بمفارقته الشهيرة

(**مفارقة فيرمي**) عام **1950** م التي تقول :

((**أين الجميع** ؟))

و قصد به غيرنا من الكائنات في الفضاء الواسع .. لقد أطلق عليها مفارقة لأن اتساع الكون الشاسع يفترض بقوة وجود حياة أخرى فيه و بنفس الوقت عدم اتصالها بنا طوال السنين الفائتة يضع إشارات استفهام قوية و يفترض بقوة أيضاً أن لا

وجود لها .. لذا فهي معضلة بلا حل نهائي حاسم حتى اللحظة ..

و سنقوم في مغالطتنا هذه (التي يفترض فيها أغلب البشر بغرور الإنسان المعهود بأنهم الجنس الواعي الوحيد في الكون) بمقاربة هذا السؤال الهام (أين الجميع ؟) محاولين التوصل إلى إجابة شافية عليه .. و سننجز ذلك من خلال تفنيدها عبر أربعة محاور أساسية (ديني ، علمي ، حوادث و اكتشافات) لنتوصل إلى خلاصة مفيدة بهذا الخصوص ..

① **المحور الديني** : و هو شحيح بالأدلة أو الأحاديث عن خلق آخرين غيرنا في الكون سواء في الأديان السماوية أو الأرضية ، و لكن هنالك آية في القرآن كتاب الله عند المسلمين أشارت إلى هذه الفكرة بطريقة صريحة و مخيفة إلى حدٍّ ما و تقول :

« ومن آياته خلق السموات و الأرض و ما بث فيهما من دابة و هو على جمعهم إذ يشاء قدير »

فكما نلاحظ مقدار غرابة و أهمية هذه الآية القرآنية التي تتحدث بشكل صريح عن خلق الله لكائنات حية أخرى في الكون و قدرته إن شاء على جمعنا بهم .. و قد يسأل سائل هنا :

((لكن ألا تقصد الآية بدواب السماء (الطيور) ؟))

و الجواب ببساطة و من منطلق علمي و لغوي أنّ الدواب هي ما تدب على الأرض و لا تطير .. زد على ذلك أننا على تواصل دائم و مباشر بالطيور فما الغرابة بأن يجمعنا الله تعالى بهم ؟ .. إذاً الآية تشير بشكل واضح إلى صعوبة التقائنا بالمخلوقات الكونية الأخرى لأسباب عديدة منها بعد المسافات في الكون الشاسع لكن الله تعالى قادر على تحقيق ذلك بسهولة متى شاء ..

② **المحور العلمي الفلسفي** : لا يمكن لهذا الكون الشاسع أن يقتصر على الحياة على كوكب الأرض فقط فهو منافٍ للعقل و للحسابات الرياضية.. فهناك ما يقدر بنحو **200 - 400** مليار نجم في مجرتنا العزيزة درب التبانة و **70** سيكستيليون نجم في الكون المرصود .. و حتى لو نشأت الحياة الذكية على نسبة ضئيلة فقط من الكواكب حول هذه النجوم يكون احتمال وجودهم هائلاً .. فالأرض تمثل في هذا الكون حبة رمل من شاطئ مجرة درب التبانة التي هي بدورها حبة رمل من شاطئ مجرات الكون .. فهل تقتصر الحياة على حبة الرمل هذه من بين كل هذه الشواطئ الفسيحة .. أمر يخالف المنطق ، الحساب و الاحتمال الرياضي ..

③ **محور الحوادث** : و يشمل الحوادث التي ادعى فيها بعض البشر رؤية صحون طائرة أو حتى فضائيين .. و التاريخ يعج بهذه القصص و لا مجال لذكرها جميعاً لذا سنكتفي بأشهرها :

- قصة اختطاف **بيتي و بارني** من قبل الفضائيين

عام **1961** م و دراستهما ثم إعادتهما خلال رحلة عودتهما من كندا إلى الولايات المتحدة الأمريكية ..

- قصة تحطم صحن طائر قرب مدينة **روزويل** الأمريكية

عام **1947** م في حقل المزارع **ماك برازيل** الذي شهد

على الحادثة رغم تهجير الأمن الأمريكي له من المكان و من ثم اعتراف **ممرضة** ساعدت طبيب القاعدة العسكرية التي نقل إليها حطام الصحن الطائر و جثث الفضائيين التي عثر عليها فيه و التي رأت الجثث بأم العين ثم شهادة الضابط **فيليب كورسو** الذي رآها بأم العين بدوره !

④ **محور الاكتشافات** : و يشمل جميع الاكتشافات الغريبة التي توحي بطبيعة فضائية و هي أيضاً غزيرة للغاية و سنكتفي بذكر أشهرها أيضاً :

❁ الهياكل العظمية الغريبة الشبيهة ببنية الفضائيين التي عثر عليها و أشهرها :

- **هيكل أتاكاما** الذي عثر عليه في صحراء أتاكاما في تشيلي ..
- **مومياوات عالم الآثار ويليام بيتري** في مصر ..
- **مومياوات المكسيك** التي عرضت على البرلمان المكسيكي عام **2023** م ..
- **هياكل باراكاس** في البيرو ..

و المشترك بين جميع هذه الهياكل هو البنية الغريبة غير البشرية الشبيهة ببنية الفضائيين كما صورهم من ادعى رؤيتهم عياناً ..

❁ الإشارة اللاسلكية الغريبة التي التقطها التلسكوب الراديوي لجامعة أوهايو في عام 1977 م الموجهة من مصدر ذكي لا يبتعد كثيرا عن كوكب الأرض و من المذهل أنه نفس العام الذي يعتقد أن هيكل أتاكاما تكون فيه مما يطرح الكثير من التساؤلات الهامة .. ومن الفرضيات التي ظهرت حينها أن هذه الإشارة و التي دعيت **واو Wow** صدرت من مركبة فضائية كانت تمر بالقرب من الأرض ..

لكنها تبقى مجرّد فرضية لا أكثر و إن لم يتمكن العلماء من وضع فرضية علمية بديلة مثبتة و منطقية لها ..

❁ **العثور على معادن صنعية غريبة في صحارى متعددة في إفريقيا** لم تكتشف في أي مكان آخر من العالم كما لم يتوصل الإنسان بعد إلى صنع معادن شبيهة بها و يعتقد البعض أنها تعود لحطام صحون طائرة متطورة ..

❁ **الهياكل المعمارية الضخمة التي شيدها الإنسان منذ آلاف السنين بدقة و إعجاز** و لم يتمكن العلماء من تفسير آلية بنائها كأهرامات مصر و الهنود الحمر و خطوط نازكا الضخمة في البيرو التي تمثّل أشكالاً هندسية و لحيوانات على رقعة شاسعة من الأرض منذ آلاف السنين و التي تفترض بعض الفرضيات أنها تمت بمساعدة كائنات فضائية متطورة إذ لا تفسير علمي مقنع لكيفية تشييدها حتى اليوم ..

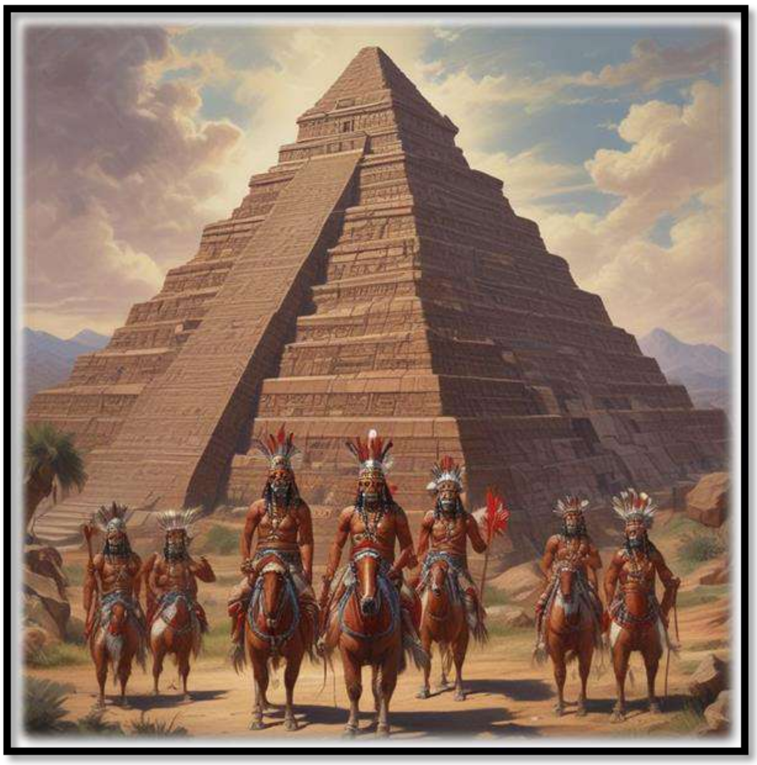

❁ **آثار لتماثيل غريبة غير مفسرة** .. و أشهرها :

- **تماثيل أكامبارو** و هي عبارة عن **33** ألف تمثال صغير اكتشفت عام **1944** م من قبل **فالديمار** في مدينة أكامبارو بجوار العاصمة **المكسيكية** مكسيكو سيتي و قسم كبير منها يمثل على نحو غريب و غير مفسّر بشر يروضون ديناصورات و أخرى لصحون طائرة ! ..

و قد يقول البعض أنّ هنالك تفسير منطقي لذلك وهو أن تكون التماثيل قد صنعت في العصر الحديث و دفنت هناك ،

لكن هنا تكمن المفاجأة الصادمة ، فتحليل التماثيل علمياً أثبت أنها تعود لقرون خلت ، أي قبل اكتشاف الديناصورات و قبل الكلام عن الفضائيين و مركباتهم .. و لا تفسيرات منطقية في جعبة العلماء حتى الآن باستثناء أن التماثيل صنعت من قبل الفضائيين أنفسهم أو من قبل بشر احتكوا بالفضائيين الذين أخبروهم بقصص الديناصورات في الماضي السحيق قبل انقراضها و في الحالتين يعود الفضائيون إلى واجهة الحديث بأدلة جديدة تفرض نفسها بقوة ..

- **تحف كويمبايا** و هي عشرات القطع الذهبية غريبة الشكل و تمثل مجسمات لهياكل طائرة على نحو غريب لا يتناسب مع الحقبة الزمنية التي اكتشفت فيها ، عثر عليها في دولة كولومبيا .. ففي تلك الفترة لم تكن الطائرات قد أبصرت النور بأي شكل من أشكالها فنحن نتحدث عن عشرات القرون خلت من الزمن ..

ننتهي هنا من مقاربة المحاور الأربعة السابقة و التي كما رأينا تشير بقوة إلى وجود حيوات أخرى غيرنا في الكون .. فليس هنالك تفسير علمي مقنع للبشر لها حتى اليوم.. و يتبقى أمامنا السؤال الهام الذي يستنفر عقولنا كي نجيب عليه و هو :

((**إن كان هنالك كائنات حية واعية غيرنا في الكون**

فلماذا لم تتواصل معنا بشكل صريح و علني حتى اليوم ؟))

و في الحقيقة تمكن العلماء من وضع عدة أجوبة عن هذا السؤال توزعت على الاحتمالات التالية ..

■ هم موجودون لكنهم لا يتواصلون معنا عمداً لانعدام ثقتهم بنا ..

■ هم موجودون ويتواصلون معنا ولكن لا يمكننا فهمهم ..

■ هم كانوا موجودين في وقت لم نكن نحن فيه (لم يمروا بالضرورة على الأرض)

■ هم موجودون لكن معظم الناس لا تدرك ذلك حتى الآن باستثناء القصص الغريبة لبعضهم ..

■ اختفوا! (أي دمروا أنفسهم أو دمرهم شيء ما، كما قد يحصل مع البشر في حال نشوب حرب نووية !) ..

■ قد نكون غير مهمين بالنسبة لهم (فقد يكونون متطورين لمراحل قد تجعلنا بنظرهم كالنحل مثلاً بالنسبة للبشر، فهل فكر البشر يوماً ما بالتواصل مع النحل؟ رغم أنهم أمامنا يعملون طوال الوقت !)

و كما نرى فجميعها تفسيرات منطقية يمكن لأي منها أن يكون صحيحاً و إن كنت أميل شخصياً إلى التفسير الأخير ..

فقدرة هذه الكائنات الحية على قطع ملايين السنين الضوئية في الكون كي يصلوا إلينا تؤكد تطورهم العلمي الرهيب مما يفترض بقوة أننا جنس متخلف بالنسبة لهم يعملون على دراسته لا أكثر دون أي رغبة بالتواصل معه .. كما نتعامل مع النحل و غيره من المخلوقات على كوكب الأرض بالضبط ..

و إن كنت أتبع المنهج العلمي المجرد في مقاربة جميع المغالطات التي أذكرها فإنني من وجهة نظر شخصية و بناءً على إيماني بوجود خالق للكون أصدّق قول الله تعالى في القرآن بأنّه خلق غيرنا في هذا الكون الشاسع و سيجمعنا بهم ذات يوم بمشيئته و حكمته ، فجميع الأدلة التي ذكرتها

آنفاً تدعم هذه الفكرة بقوة من احتمال رياضي إلى حوادث رؤية الفضائيين و صحونهم الطائرة و انتهاءً بالاكتشافات الأثرية المذهلة التي عجز العلماء حتى اللحظة من تفسيرها علمياً و منطقياً .. و الموضوع برمته كحقيقة وجود الديناصورات في التاريخ فنحن لم نر ديناصوراً حياً من قبل قط ، لكننا رأينا من الأدلة ما يكفي لإثبات وجودها ذات يوم .. و المحاور الأربعة التي قاربناها تشير بقوة إلى حقيقة وجود كائنات أخرى في هذا الكون ..

*****

في ختام مقاربة مغالطتنا الجديدة (**لا أحد غيرنا**) ، علينا أن نتواضع كبشر قليلاً فلا نقول :

= هذا الكون برمته ملك لنا لوحدنا ، و لا أحياء سوانا فيه ..

بل أن نقول :

= نحن نعيش على حبة رمل من شاطئ مجرة هي بنفسها حبة رمل من شاطئ مجرات الكون .. و ليس بغريب أو مستبعد على الإطلاق أن يتواجد جنس واعٍ غيرنا على حبة رمل أخرى على الأقل من هذه الشواطئ الشاسعة ..

و ألا نقول :

= نحن البشر أسياد هذا الكون بالتطور العلمي الهائل الذي توصلنا إليه ..

بل أن نقول :

= العلم محيط شاسع لم نغرف منه بعد سوى قطرة أو أقل ،

و من المرجح وجود كائنات غيرنا في الكون غرفوا منه المزيد لدرجة أننا بالنسبة إليهم كالجراثيم التي شاهدها ملهم على الشريحة تحت المجهر في مطلع هذه المغالطة و التي تظن أن الشريحة هي حدود الكون و أنه لا حياة أخرى خارجها ..

و ننهي مقاربة هذه المغالطة بقول الله تعالى الحكيم :

((**و ما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**))

مخالطة الفرقة الناجية

(عليها من كل زوج)

= اليهودية هي الدين الصحيح .. فنحن شعب الله المختار ..

= بل المسيحية هي دين المحبة و ذات الانتشار الأوسع في العالم مما يدل على أن الله اختارها لتتسيّد الأديان ..

= لا هذا و لا ذاك .. الإسلام هو دين الحق الوحيد .. فمحمد خاتم الأنبياء و هذا يفترض بالضرورة و المنطق أن دينه هو الأشمل و الأحسن ..

= لا أعرف عما تتخاصمون .. و سجلكم التاريخي يعجّ بالحروب الدموية لنشر دينكم .. البوذية هي الحل و هي الدين القويم الذي لم يسفك قطرة دم واحدة ..

*****

في هذا الحوار الدائر بين رجال دين من الأديان الأربعة الكبرى في العالم ، نجد أنّ كلاً منهم يحاول جاهداً شدّ الحبل إلى جهته و إثبات أن دينه الذي يتبعه هو الدين الأفضل و المنتقى من قبل الله ، و ما يعقب ذلك من أن أتباع هذا الدين هم وحدهم من تليق الجنة به في حين يتعذّب الباقي في لهيب الجحيم إلى أبد الآبدين .. هذا هو بالضبط جوهر مغالطتنا

الجديدة .. مغالطة (**الفرقة الناجية**) المستوحاة من

تفسير بعض رجال الدين لحديث منسوب إلى الرسول محمد بعنوان مشابه (الفرقة الناجية) و بالطبع الحديث مختلف على صحته و على تفسيره إن كان صحيحاً (على خلاف القرآن الذي يختلف المسلمون على تفسيره فقط) و يقول

الحديث :

((**افترقت اليهود على 71 فرقة، وافترقت النصارى على 72 فرقة، و ستفترق هذه الأمة على 73 فرقة كلها في النار إلا واحدة**))

ليولد من رحم هذا الحديث الخطير السؤال الجوهري و الهام في مغالطتنا التالية من هذا الكتاب:

((**هل حقاً من بين جميع أديان و طوائف العالم هنالك فرقة وحيدة ناجية من النار خلقت الجنة**

لأجلها، و الباقي يساقون إلى جهنم للأبد ؟))

و كجواب بسيط و وجيز كالعادة و مشتقّ من القرآن نفسه أي كلام الله تعالى المباشر بالنسبة للمسلمين أنفسهم نذكر الآية المذهلة التالية :

((**إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم**))

نسنده و ندعمه مباشرةً بحديث شريف آخر و بنفس الجوهر و المضمون :

((**لا فضل لعربيّ على أعجمي و لا لأبيض على أسود إلا بتقوى الله و العمل الصالح**))

فالآية والحديث على نحوٍ جليٍّ و واضح يضعان **التقوى و العمل الصالح** كمعيار وحيد فقط للأفضلية عند الله ، و للمكانة المميزة في ملكوته .. ليس اسم الدين أو الطائفة أو الشعائر أو الزيّ أو بيت العبادة أو أي شيء آخر .. و هذا ما يتماشى في الحقيقة مع فطرة العقل البشري و المنطق السويّ السليم .. فالدين معاملة بالمقام الأول و المسلم من سلم الناس من لسانه و يده .. **فالفكر و القول و العمل الصالح هم**

سفينة النجاة الوحيدة للإنسان من لهيب جهنم ،

و في **سفينة النبي نوح** خير مثال على ذلك عندما نقل فيها زوجاً من جميع الكائنات ..

و في ذلك كناية للبشر عن أن سفينة النجاة من فيضان الدنيا الاختباري تحمل من جميع الأديان و الطوائف قاطبةً بمن فيهم الملحدون أنفسهم ممن صح فكره و قوله و عمله ، فالله تعالى غنيّ عن إيماننا به و جلّ ما يريده منا هو صلاح هذا

الثالوث المقدس في حياتنا (**الفكر و القول و العمل**)

، أما الباقي فهو تحصيل حاصل بشهادة دامغة من القرآن الكريم و الحديث الشريف .. و ليس الانتماء لدين محدد من يقرر ذلك أو يشفع للإنسان ، فابن النبي نوح نفسه لم يشفع له

انتماؤه لأبيه من الغرق في الطوفان فما قولك بالانتماء إلى طائفة معينة فحسب كمعيار للنجاة .. و هذه بحد ذاتها كناية أخرى لأولي الألباب أن المعيار الذهبي الوحيد هو صلاح الإنسان و ليس انتماؤه لأي شيء آخر ..

كل ذلك يقودنا إلى احتمالين لا غير لحديث الفرقة الناجية ،

إما أنه ملفق و منسوب كذباً إلى الرسول لغايات معينة ، أو أنه مفسر بطريقة خاطئة و قُصد منه شيء آخر .. فكلام الرسول (الحديث) لا يتعارض مع كلام الله الذي أرسله (القرآن) بل الأول هو شارح و داعم للثاني بالضرورة ..

فالنور الإلهي الذي يعبر موشور الحياة كما الضوء العادي الذي يتشعب إلى ألوان عديدة زاهية ، فإنه يتشعب إلى أديان و طوائف مختلفة لكنها جميعاً تعود في أصلها إلى النور الإلهي ذاته و لا أفضلية للون على آخر إلا بالتزامه بالطبيعة المقدسة الصالحة و الخيّرة للنور الإلهي ..

و من شذّ عن هذه الحقيقة العلمية الروحية إلى اللون الأسود (الخطايا و الموبقات) تاه في غياهب ظلمات ذلك اللون عن نور الله فطاله العذاب في الدنيا و الآخرة ..

أو يمكننا القول ببساطة أنّ الجنة غرفة لها عدة أبواب و يمكنك دخولها من أي باب تشاء لكن بشرط أن تملك مفتاح هذا الباب ، و مفتاح أبواب الجنة هو الثالوث الصالح السابق لا غير .. لذا ليس بغريب أن نجد أنّ أحد أسماء الجنة هو :

(**الغرفة**) كما قال تعالى :

((**أولئك يجزون الغرفة بما صبروا و يلقّون فيها تحيّةً و سلامًا**))

و سنقوم الآن بمقاربة مغالطتنا بشكل أعمق عبر تحليل المسببات القابعة خلفها و التي تتوزع على النقاط التالية :

❁ **السبب الأول** : و هو الغالب و الأهم ، يشتمل على **الجهل** .. فالناس الذين لا يستخدمون عقولهم لتمحيص أي شيء ديني يسمعونه ثم يطابقونه مع كلام القرآن و المنطق العقلي الفطري السليم ، يتلقون أمثال حديث الفرقة الناجية ككلام منزّل و مسلّم به دون تفكير .. و في مقولة الرئيس الأمريكي **أبرهام لينكولن** ما يوضح ذلك بأبهى صورة :

((الجهل يجعل الإنسان يُصدِّق كل ما يسمع دون التحقق، بينما المعرفة تعلمه أن يكون مُنقِّباً ومُفحِّصاً للحقائق))

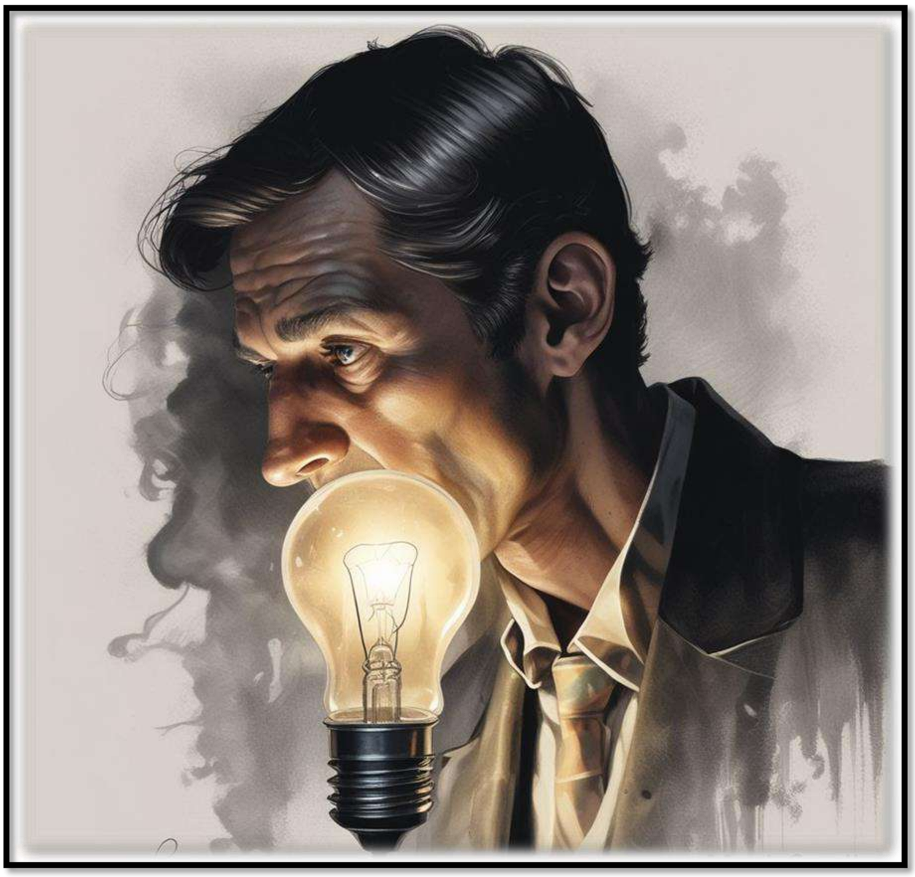

و هنا تقوم سياسة القطيع بعملها المعهود ليقولوا : (**هذا ما وجدنا عليه آباءنا**) **فتوارث التفسير يمنحه شرعية** من وجهة نظرهم على نحو غير منطقي البتة .. و للأسف الخروج عن هذا القطيع لا يتطلب جهداً عقلياً و نفسياً هائلاً فحسب بل تترتب عليه مخاطر كبيرة بانقلاب القطيع على

من يحاول الخروج منه و إيذائه قولاً ثم فعلاً و ربما انتهى بهم المطاف إلى درجة القتل لإسكاته بحيث يمنحون أنفسهم سلطة الله بتقييم الناس و تحديد صوابية أفكارهم أو أقوالهم أو أفعالهم و أخيراً انتمائهم ثم محاسبتهم انتهاءً بإنهاء حياتهم كجريمة لا تعلو عليها أي جريمة أخرى في الحياة !!

❁ **السبب الثاني** : **التعصب الأعمى** للدين أو الطائفة ،

وهو ذو علاقة وثيقة بالسبب السابق (الجهل) كما أوجز المفكر الأمريكي **مالكوم إكس** بإبداع :

((الجهل يؤدي إلى الخوف والتعصب، بينما المعرفة و الثقافة تزيدان الفهم والاحترام للآخرين))

و التعصّب لا يمت للدين بصلة فهو لا يختلف عن تعصّب الجاهلية بشيء .. إذ أنه عبارة عن انتماء لا واعٍ مفرط شبيه بأي انتماء متشدد آخر للقبيلة أو المدينة أو الدولة .. و لا أخطر من التعصب على البشرية و على غاية الله من خلقها ، فالمتعصب شخص غير عقلاني من الصعب إقناعه بالحجة و البرهان و لو كان ذلك كلام الله نفسه كما قال الطبيب و الكاتب الأمريكي **أوليفر هولمز** :

((عقل المتعصب يشبه بؤبؤ العين، كلما زاد الضوء المسلّط عليه زاد انكماشه))

بمعنى أنك كلما قدمت للمتعصب أدلة علمية عقلانية أكثر تفضح خطأ تفكيره و منطقه الأعوج ، زاد تعصبه أكثر و أصبح أكثر شراسةً ، هجوماً و خطراً ، فأوصد الأقفال على دماغه أكثر كي يمنع تسرب نور العلم و المنطق السليم إليه تماماً كما تتقبّض حدقة العين بتسليط الضوء عليها ..

و التعصّب بالتحليل النفسي هو منعكس غريزي غير عقلاني عند الإنسان للأشخاص أو الفكر أو المكان الذي ينتمي إليهم يضمن له الحماية الجماعية و الأمان النفسي الفردي و يحتاج بدوره لاستخدام العقل بطريقة ممنهجة و منطقية للتخلص منه و التحرر من قيوده إلى عالم الحياد و التجرد العلمي المقدس بالنسبة لله و أنبيائه الذين أكدوا عليه في جميع كتبهم

السماوية ، ومثال ذلك قول الله تعالى :

((و لو شاء ربك لآمن من في الأرض جميعاً * أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين))

و قوله تعالى :

((فمن شاء فليؤمن و من شاء فلكفر))

و قوله تعالى :

((لا إكراه في الدّين قد تبين الرشد من الغي))

و هذه الآيات الثلاثة خير دليل دامغ على أنّ الله لم يمنح لأي فرد أو جهة الشرعية كي تجبر الناس على الإيمان بدينها فما بالك بتكفيرهم ثم محاسبتهم ، قتلهم و إرسالهم بقرار منهم إلى جحيم مفترض ادعوا لأنفسهم تحديد مقاييسه و معايير الدخول إليه أو المقابل من ذلك منح الناس تذاكر مجانية إلى الجنة لمجرّد الانتماء إلى فرقة معينة بغضّ النظر عن سلوكهم .. فالله يأمرنا بالحياد فيما يتعلّق بمعتقدات الآخرين و منحهم حرية عدم الإيمان لو أرادوا ، و هو وحده من يقرر كيف يتعامل معهم أو يهديهم ..

كيف بعد كل ذلك يحتكر أي دين الجنة لنفسه و الله لم يمنحه أي شرعية بتقييم الناس دينياً بالأساس ..؟!

۞ **السبب الثالث** : و هو **المنفعة** المادية أو السياسية

أو العسكرية وخير مثال عليها **صكوك الغفران** التي روج

لها بابا الفاتيكان السابع (**ليون العاشر**) و ذلك بمنح الناس صكوك تغفر خطاياهم و تدخلهم الجنة مقابل المال .. و كان الهدف وراء ذلك تأمين المردود المادي الكافي لتمويل بناء **كنيسة القديس بطرس** في روما .. و ما أكثر رجال الدين الذين يبيعون صكوك الغفران في زمننا الراهن لغايات مادية متنوعة ..

و للأسف بسبب هذه الأسباب الثلاثة من **الجهل** ، **التعصّب** و

المنفعة يشذ كثيرون عن الحقيقة الإلهية السامية بأن الأديان جميعها عبارة عن أنهار تنبع من بحيرة عقائدية واحدة و تصب في النهاية في المحيط الإلهي الأوحد و كل إنسان حر بأن يبحر بقاربه في أي نهر يختار ليصل إلى وجهته الأخيرة و قبلته المقدسة ..

و ننهي مقاربتنا هذه لمغالطة الفرقة الناجية بسؤال بديهي للغاية يفرض نفسه بقوة و يتمخض عما سبق و ناقشناه :

((**لو كان الدين الأصح محصوراً بفرقة معينة ديناً أو**

طائفة ، ألم يكن من المنطقي أن يرسل الله نبياً وحيداً ينشر فكر هذه الفرقة على جميع الناس من باب العدل و الإنصاف و تساوي الفرص كأن يرسلها مع أبي البشر و أول الخلق آدم لتتوارثها الأجيال من بعده تباعاً ؟!))

فكيف يمكن لأستاذ المدرسة أن يختبر طلاب صفه بأسئلة خاصة بكل تلميذ منهم كمعيار لنجاحهم ، هذا أمر منافٍ للعقل ، الإنصاف و تساوي الفرص .. لذا نجد دوماً أن أسئلة الامتحانات موحدة لجميع الطلاب قاطبةً .. و لأنّ الله عادل يحب الإنصاف إذ قال عن ذاته المقدسة :

((**و ليس ربك بظلّام للعبيد**))

فيستحيل كما سبق و حللنا أن يحصر الصواب و الجنة بفرقة بعينها دون أخرى .. بل كما أوضح جلّ جلاله في أماكن كثيرة بأنّ التقوى و العمل الصالح هما المعيار الوحيد المتبع لديه في الحياة الدنيا و هما فقط من يحددان مصيرك في الحياة الآخرة ..

*****

في ختام مقاربتنا للمغالطة الجديدة (**الفرقة الناجية**) ، من الأنسب بعد الآن ألا نقول :

= ديني أو طائفتي هي الفرقة الناجية في الآخرة لأنها تحتكر الدين الصحيح و السليم ..

بل أن نقول :

= الأديان جميعها من عند الله ، و الله لا يرسل نبياً برسالة قاصرة أو غير صحيحة إلى شعب كامل فذلك منافٍ للعقل ، المنطق و العدل فإن كان المصدر قاصراً و غير كافٍ ، على أي أساس سيحاسب الله متبعيه يوم القيامة ..

و ألا نقول :

= لا يهمني كم اقترفت من معاصي في حياتي فديني و طائفتي الناجية ستتشفع لي عند الله يوم الحساب و تدخلني جنانه ..

بل أن نقول :

= الدين معاملة ، و الله أكد أن التقوى و العمل هما فقط المعيار الذي سيقرر مصيري الأخير و يشفع لي عند خالقي يوم القيامة .. فما فائدة جميع الطقوس و الشعائر و الفرائض إن لم تقترن بسلامة الفكر ، القول و العمل .. و بماذا تختلف عن عادات الجاهلية و عبادة الأصنام إن كانت أفعالي جاهلية بالأساس ..

اختر النهر الذي تريده و أبحر بأي قارب تشاء فيه لملاقاة خالقك ، لكن تذكر أن **سلوكك على هذا القارب هو من سيشفع لك بين يديه و ليس قاربك نفسه أو النهر الذي اخترته** ، فهذه كلها مجرد وسائل لغاية واحدة و هي ملاقاة الله رمز الخير و الحب ، الآمر بانتهاج هذا السلوك و تقبل الآخرين أياً كانت وسيلتهم التي أبحروا فيها .. فالله بنفسه من خلق عدة أنهار و هو من وهب الناس قوارب مختلفة ليشقوا بها طريقهم إليه ..

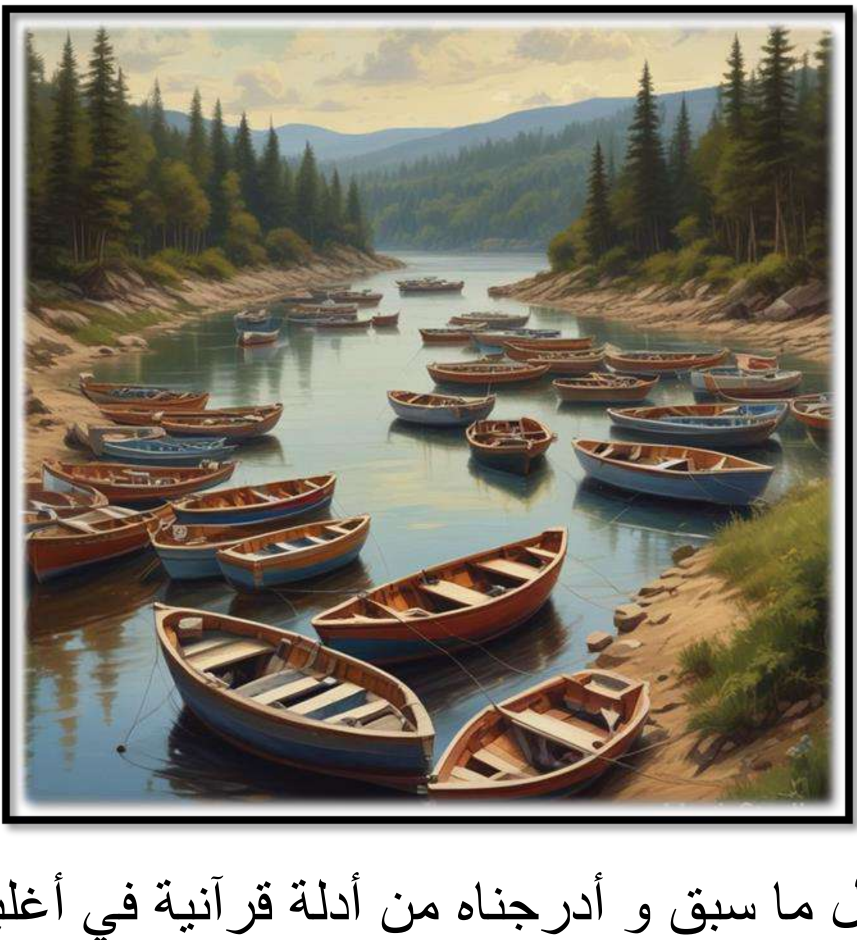

و تبعاً لكل ما سبق و أدرجناه من أدلة قرآنية في أغلبها ، لا تتفاجأ عزيزي القارئ إن رأيت يوم القيامة أناساً ملحدين

يدخلون الجنة بأعمالهم الصالحة في دنياهم فعدم الإيمان لا يفترض الأخلاق السيئة بالضرورة في جميع الحالات ، و آخرين لم تشفع لهم كثرة الفرائض و الالتزام بها و تشييد دور العبادة المبهرجة عن دخول النار ، فكم من صائم ليس له من صيامه سوى الجوع و العطش ، فالصيام صيام عن المعاصي ، كما أنّ الصلاة دعوة للتواضع و تنظيف للقلب من شوائب الغل و الحسد و ليست وسائل للتباهي و الرياء و خداع النفس قبل الآخرين ..

و أختم بهذه الأبيات الشعرية الراقية للشاعر المبدع **وائل جحا** التي تلخص كل ما سبق بأنّ صلاح سلوكك هو رفيقك الوحيد إلى آخرتك و تذكرتك إلى الجنة و نجاتك من لهيب النار ..

نعم يوماً سأرحلُ يا صديقي

إذا سكنَ الزَّفيرُ مع الشَّهيقِ

لِتجمدَ في العروقِ دماءُ قلبي

وأدفنَ في التُّرابِ بلا رفيقِ

سوى عملي فلن ألقى رفيقاً

يلازمُ غربتي في ذا الطَّريقِ

فإمَّا كانَ في خيرٍ سأغدو

بخيرٍ دائمٍ من دونِ ضيقِ

و إمَّا كانَ في شرٍّ فويحي

فذا بؤسٌ يغصِّصُني بِرِيقي

فيا نفسي عنِ الآثامِ توبي

فما الدُّنيا بمثواكِ الحقيقي

مغالطة الطاقة المهدورة

(السماء الزائفة)

= لقد فشلت و ذهب جهدي أدراج الرياح .. و كأنّ ما أنجزته من عمل لم يكن و لن يؤثر على حياتي أو حياة أحد

= لم أترك خلفي في هذه الحياة شيئاً هاماً بارزاً .. و يوماً ما سأموت و ينسى الناس أنني كنت موجوداً بالأساس ..

*****

كثير منا مر بهذه الظروف عندما أخفق عمله في إنجاز ما يصبو إليه أو لم يلقَ اختراعه الصدى المأمول أو راودته فكرة العدمية و بأنه سيصبح طي النسيان بعد موته لأنه لم يترك إنجازاً عظيماً كغيره في الحياة فظنّ أن لا قيمة له أو لحياته و أنه إضافة لا معنى لها إلى الحياة .. و من عتمة هذه الأفكار الشائعة تبصر مغالطتنا التالية في الكتاب النور : (**مغالطة الطاقة المهدورة**) و التي تنطوي على فكرة وهمية تراود جميع الناس في فترات كثيرة من حياتهم :

((جهدي إن لم يصل بي إلى النجاح مهدور ، و حياتي إن لم أترك إنجازاً عظيماً في العالم لا قيمة لها و كأنها لم تكن))

و كما يتضح من مضمون هذه المغالطة أن الناس تميل لقرن قيمة الجهد أو الحياة ككل بالإنجاز الضخم من جهة أو الآني

المحسوس بالحواس الخمسة من جهة أخرى فإن لم يشعروا به في حياتهم فكل جهد بذلوه فيها عبثي و عدمي بافتراضهم

سننطلق في مقاربة هذه المغالطة الشائعة و المثيرة من مبدأين رئيسيين :

❁ **مبدأ علمي** : لمتّبعي العلم كأساس في حياتهم و هو المبدأ الفيزيائي الشهير للعالم الألماني **يوليوس روبرت فون ماير :**

((**الطاقة لا تفنى و لا تخلق من العدم**))

و سنحاول من خلال تحليلنا و مناقشتنا أن نثبت أن هذا المبدأ

ينطبق على أي جهد يبذله الإنسان سواءً حقق نجاحاً في حياته أم لم يحالفه الحظ بذلك .. فجهد الإنسان بدوره طاقة لا تفنى أبداً بل تجد دوماً الطريق للتعبير عن نفسها و التأثير و لو بعد زمن طويل ..

❁ **مبدأ ديني** : لمتّبعي الإيمان كأساس في حياتهم و هو قول الله تعالى :

((**و من يعمل مثقال ذرّةٍ خيراً يره * و من يعمل مثقال ذرّةٍ شرّاً يره**))

ففي ذلك إشارة واضحة إلى أن أي جهد في الحياة مهما كان حجمه و مهما كان توجهه سلباً أم إيجاباً سيرتد على صاحبه بشكل أو بآخر سواءً في حياته أو حتى بعد موته و سواءً في الدنيا أم في الآخرة كمفهوم (**الكارما**) بالضبط ..

و لا يخفى عنا جميعاً الارتباط الوثيق و التشابه العميق بين هذين المبدأين و أنّ جوهرهما واحد .. مما يؤكد مجدداً أن العلم و الإيمان وجهان لعملة واحدة يكمّل كل منهما الآخر و يمنحه القيمة ، الغاية و الصواب .. فالعلم بلا إيمان بلا هدف و الإيمان بلا علم كلام في الظلام لا صحة له .. كما لخص العبقري **أينشتاين** هذه الفكرة بمقولته الشهيرة :

(**العلم دون دين أعرج، والدين دون علم أعمى**)

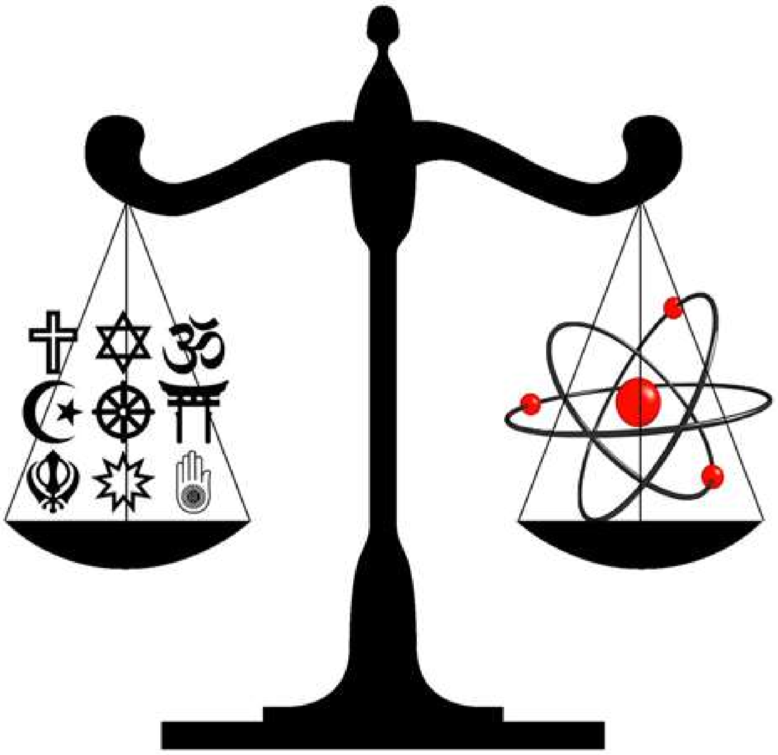

في الحقيقة إنّ كل فكرة تولد من دماغك أو كلمة تخرج من فاهك أو فعل تنجزه يداك سيؤثر تأثيراً كبيراً من نفس طبيعته (سلباً أم إيجاباً) عاجلاً أم آجلاً سواء في حياتك أم بعد موتك كطاقة لا تفنى أبداً بل تنتقل بين الناس ، فلا تستهن بأي ثانية من عمرك فكرت فيها بموضوعٍ محدد أو قلت فيها شيئاً ما أو فعلت أمراً معيناً فعواقب ذلكَ كله و إن لم تسعفك قدرتك أو وقتك لملاحظتها لن تموت بل ستتكاثر فيما حولك و تؤثر بقوة في العالم المحيط بك .. كمثل بذرة زرعتها في بلدٍ بعيد زرته ثم غادرته و نسيت أمرهاً .. لكنها نمت و كبرت مع تقادم السنين لتغدو شجرةً فارعةً تفيأ كثيرون بفيئها و أكل غيرهم من ثمارها كما تسلقها الأطفال و لهوا حولها لأجيال متعاقبة .. فتخيل أن فعلك البسيط ذاك و هو زرع بذرة نتج عنه لفترات طويلة من الزمن كل هذه الأحداث .. فما بالك بأفكارك ، أقوالك و افعالك الواعية الأكبر بكثير من ذلك .. فقيمة عملك لا تقدر بنجاحك الضخم فيه أو غايتك منه بل بغايات الله ذات الأبعاد المختلفة منه و الذي ألهمك في المقام الأوّل على التفكير به أو قوله أو فعله..

من منا لم ينظر إلى سماء الليل و هام بمظهرها الساحر الملهم بنجومها التي تنبض بالحياة متلألئةً .. لكن الحقيقة المفاجئة هنا و التي قد يجهلها البعض أنّ كثيراً من هذه النجوم المتلألئة لا تنبض فعلياً بالحياة بل أنها انفجرت منذ

زمن طويل جداً و ماتت و لو تمكنا بطريقة ما من الوصول إليها لما وجدنا شيئاً مكانها .. فما نراه الآن هو نورها الذي شعّ منها منذ زمن سحيق و قد وصل إلينا للتو قاطعاً ملايين السنين الضوئية و حينما وصل إلى حدقاتنا كانت النجوم الأم التي شعّ منها قد زالت من الكون ..

و هكذا أفعال الإنسان و جهده مجرد أن ينجزها ستشع منه في كل اتجاه ليستقبلها مصدر ما بشكل مؤكد ربما قريب منه و ربما بعيد في قارات نائية ، ربما و هو على قيد الحياة و ربما بعد وفاته .. لكنها لن تتبخر و تفنى على الإطلاق بشكل مؤكد ..

و في تنوع البشر و طباعهم و توجهاتهم ما يؤكد ذلك فلكل فعل بشري متلقٍّ نوعي خاص به يهتم لأمره و يؤثر فيه .. و هذا ما يفسر عدم نجاح البعض في مجتمع معين في حين تثمر جهودهم و انجازاتهم في مجتمع آخر .. تماماً كالبائع الذي يعرض منتجه للناس فيمر أغلبهم أمامه دون اكتراث لكنّ أحدهم سيلفت المنتج انتباهه لا محالة و يناسب ذوقه فيشتريه و يستعمله ..

و قد تم التعبير كثيراً عن هذه الفكرة بمصطلحات متنوعة كمبدأ (**أثر الفراشة**) الذي يقول بأن رفرفة جناحي الفراشة المرهفة و الذي لا نلحظ تأثيره أمامنا ممكن أن يتسبب في إعصار في مكان ما من العالم ..

و مبدأ (**الدومينو**) و كيف أنّ إسقاط أول حجر دومينو صغير سيؤثر تأثيراً بسيطاً على الحجر الذي يليه لكن هذا التأثير سيستمر و يتفاقم كمتوالية هندسية ليعطي تأثيراً رهيباً في النهاية ..

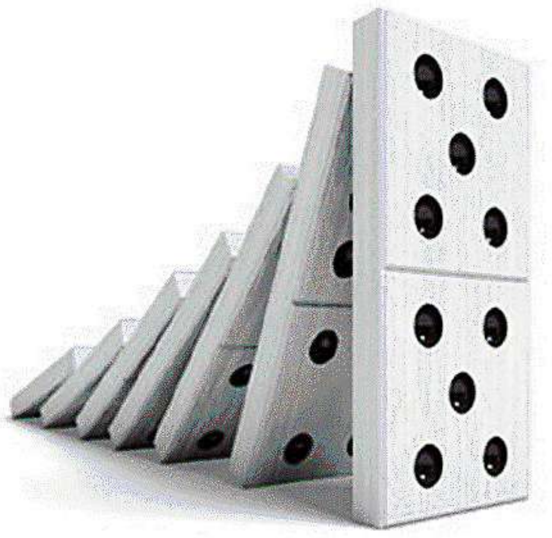

و من أرشيف التاريخ الزاخر بالأمثلة و العبر حكاية ملهمة للغاية توضح بمنتهى الدقة و الإبداع كل ما سبق و ذكرناه :

تبدأ القصة من مستشفى **جون هوبكنز** عام **1951** م، و

هو المستشفى الوحيد الذي وافق على علاج الأميركيين الأفارقة في المنطقة في ذلك الوقت ، لنتعرف بالسيدة

هنرييتا لاكس مزارعة التبغ الأميركية فقيرة الحال

صاحبة البشرة السمراء ، فبعد ولادة طفلها الخامس، اكتشف الأطباء وجود ورم داخل عنق رحمها ، ، و لم تعلم هنرييتا قطّ أن الورم الذي أودى بحياتها في العام نفسه ، و كانت ما

تزال في **سن الحادية و الثلاثين 31**، سيكون البداية للعديد من الاكتشافات العلمية التي غيرت وجه العالم وحصدت جوائز نوبل .. حتى أنها وصفت **بأم الطب الحديث** ..

و تم تخليدها في اللوحة الزيتية التي جسدها فيها الفنان **قدير نيلسون** عام **2017** و الموجودة في متحف في واشنطن العاصمة ..

فقد تبين أن خلايا ذلك الورم معجزة علمية كسحر حقيقي فهي تستمر بالانقسام دون توقف مما منح العلماء في المختبرات عينات دائمة من الصعب تأمينها في الحالة

الطبيعية لتطوير لقاحات لكثير من الأمراض التي أنقذت حياة الملايين كما أسهمت بشكل كبير في تطوير تقنية **الإخصاب خارج الجسم(IVF)** التي ساعدت كثير من الأزواج الذين يعانون من العقم على الإنجاب .. مما رفد الحياة ببشر آخرين .. و كل ذلك بعد وفاة السيدة هنريتا بعقود ، فشعاع نجمها وصل إلى الملايين حتى بعد موتها فأنقذ حياتهم أو منحهم الحياة نفسها، **في حين أن هنريتا عاشت حياة متواضعة و غادرت الحياة بهدوء شابة يافعة تخال نفسها أن لا قيمة لحياتها و أنه لا سبب لوجودها على هذه الأرض** .. لكن للسماء بحكمتها رؤية مختلفة و غايات بعيدة النظر لم يتيسر لهنريتا أن تدركها في حياتها ..

و أرشيف التاريخ يعج أيضاً بالكثير من قصص المشاهير الذين لم يلقوا النجاح المأمول في حياتهم و لم يعرفوا درب الشهرة إلا بعد وفاتهم ، فرحلوا و قد ظنوا أن جهدهم كان وهماً ضائعاً ذهب أدراج الحياة ، ومن الأمثلة الشهيرة على هؤلاء :

◈ **ألفريد فيغنر** خريج جامعة برلين، و الذي قام بتجارب مذهلة و اكتشف العديد من الحقائق حول الانجراف المستمر

للقارات وكيفية ارتباطها ببعضها البعض ، حيث نشر نظرياته أثناء حياته لكن بسبب عدم وجود دليل ملموس عليها لم يعترف بها أحد، إلا أنه بعد وفاته تم إثبات نظرياته بالدليل القاطع و لاقى شهرة واسعة و هو تحت التراب ..

◈ **فرانس كافكا** الكاتب الألماني و هو من أكثر الكتاب تأثيراً في القرن العشرين ، لكنه لم يكن موجوداً للاستمتاع بهذه الشهرة .. فحين عرض أعماله على الناشرين تم رفضها جميعاً ولم يأخذها أحد على محمل الجد مما دفعه إلى اليأس و الاكتئاب لذا قبل وفاته أوصى أحد أصدقائه بحرق جميع أعماله بعد أن يموت ؛ لكن صديقه رفض القيام بذلك و قام بنشر كل أعماله ليشتهر في كل أنحاء العالم و لتحترق أعماله إبداعاً ..

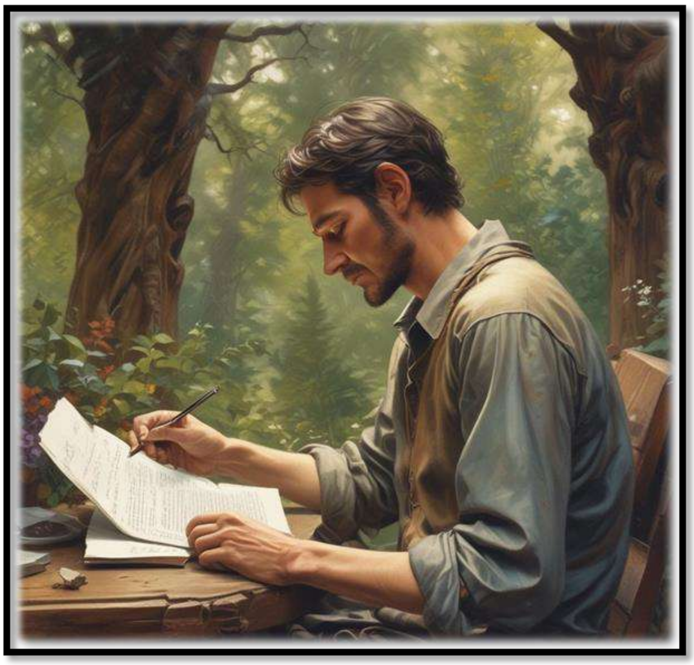

◈ **إدغار آلان بو** وهو كاتب وشاعر أمريكي مشهور حالياً

بكتاباته الرومانسية التي تركز على الغموض؛ لكنه لم يعترف به في حياته بدوره .. وقد كان أول من كتب قصة بوليسية روائية قصيرة، فهو من قدّم شخصية **المحقق دوبين** التي استوحى منها **آرثر كونان دويل** شخصية **شارلوك هولمز** الشهيرة لاحقاً .. لقد نشرت معظم كتاباته بينما كان لا يزال على قيد الحياة، لكنه لم يحصل منها على المال الكافي حتى لإعالة نفسه .. في حين أنها حصدت الأرباح الهائلة و الشهرة العارمة بعد موته بسنوات و عقود..

و من هذه القصص **المعبرة لهنريتا لاكس** ، **ألفريد فيغنر** ، **فرانس كافكا** ، **إدغار بو** و كثيرين غيرهم لا مجال للتطرق إليهم جميعاً هنا، نتوصل مجدداً إلى نفس الحقيقة الجوهرية:

((لكل إنسان قيمة هامة في الحياة و إن غفل عنها

شخصياً فلم يقدر نفسه حق قدرها و ظنّ أن أفكاره و كلماته و أفعاله كانت دون جدوى ، لكنها بتوجيه من الله ستنمو وتتكاثر لاحقاً فتؤثر في حياة الآخرين بعشرات الطرق عاجلاً أم آجلاً))

و قد لخص الشاعر الكبير **أبو العلاء المعري** هذه الفلسفة بأبياته الأيقونية الرائعة :

الخط يبقى زمانا بعد كاتبه

وصاحب الخط تحت الأرض مدفونا

والذكر يبقى زمانا بعد صانعه

وخالد الذكر بالإحسان مقرونا

فحياتنا ليست مقتصرة على وجودنا الجسدي على هذه الأرض بل ببقائنا أحياء في عقول الآخرين بما تركناه خلفنا من آثار تتفاعل مع حيواتهم ، **و من المؤكد أنه ما من إنسان يأتي إلى هذه الأرض يغادرها كما أتاها بدون أي تأثير فطالما نحن على قيد الحياة سنفكر** ، **نتكلم و نفعل و كل ذلك سيؤثر بطرق متنوعة في العالم المحيط بنا كطاقة لا تعرف الفناء أو الضياع** ..

*****

في ختام تحليل هذه المغالطة الشائعة (**الطاقة المهدورة**) ، من الأنسب بعد اليوم ألا نقول :

= إنّ جهدي إن لم يحقق النجاح لي ضائع و سيفنى و كأنه لم يكن ..

بل أن نقول :

= جهدنا طاقة لا تفنى و سيصل إلى المتلقي المناسب عاجلاً أم آجلاً ليحقق النجاح المأمول .. و جلّ ما علينا فعله أن نقوم بواجبنا ببذل الجهد و زرع بذرتنا في التراب و السماء ستتكفل بسقايتها و إنمائها لتعطي شجرة من النجاحات و التأثير سواء كنا فوق هذا التراب أم مدفونين في أحشائه ..

و ألا نقول :

= لقد كانت حياتنا هادئة لم نترك فيها الإنجازات العظيمة و سنُنسى إلى الأبد بعد موتنا ..

بل أن نقول :

= كل فعل نقوم به في حياتنا سلبياً كان أم إيجابياً و إن كان مثقال ذرة سيتضاعف كأثر الفراشة أو تساقط أحجار الدومينو و يغير في حياة الآخرين في هذا العالم .. فقيمة الفعل لا تكون بحجمه فحسب بل الأهم بجوهره (سلباً أو إيجاباً) .. و ربّ كلمةٍ واحدة غيرت مجرى التاريخ ..

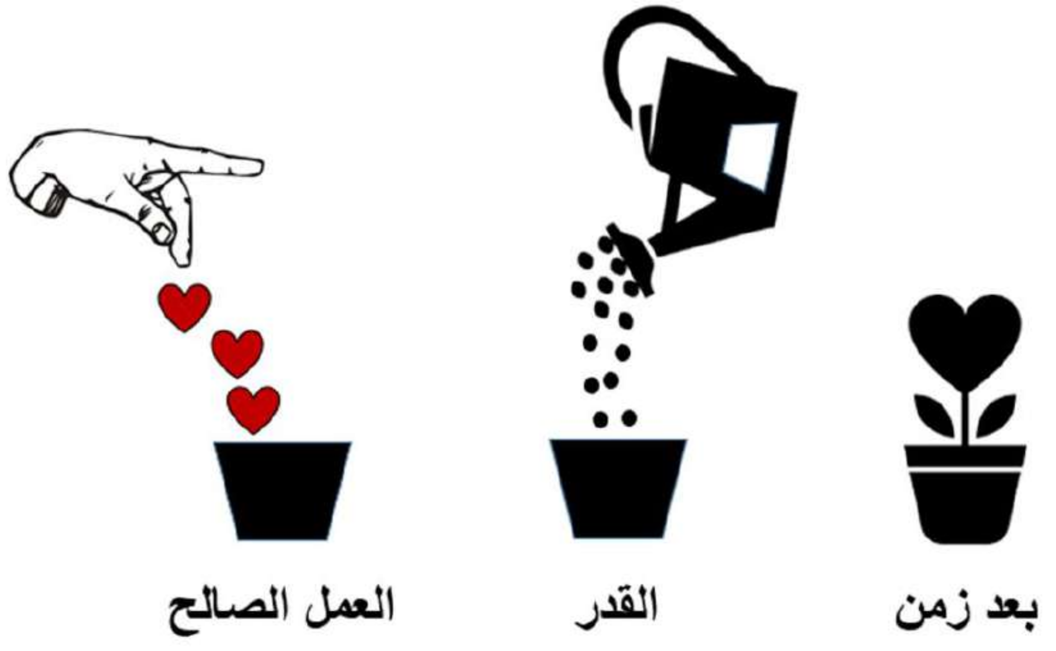

كلنا مزارعون في حقل الحياة ، فلنعمل على زرع بذور العمل الصالح المعجون بالخير و الحب في هذا الحقل وقدر الله بحكمته سيرويها و ينميها ، فإن لم نستفد منها بأنفسنا سيستفيد من ثمار أشجارها الوارفة آخرون يوماً ما ،

كما نستفيد نحن من ثمار غيرنا الآن .. فلا يمكن تلخيص فلسفة العمل الصالح بدقة أكثر من وصفه بكلمة واحدة فقط :

(**بذرة**) ..

و أختم ببيت شعر مذهل للشاعر الكبير **الحطيئة** :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العُرف بين الله و الناس

مخالطة إكليل الورد

(العطر في الجهتين)

= انتبه من فلان إنه شخص كافر .. لا تخالطه ..

= بالطبع لن أفعل .. دعه يتوه في ظلمات فكره حتى يتعفّن في لهيب الدرك الأسفل من الجحيم ..

= أحسنت ، من ينسى الله فالله سينساه .. و هذا ما علينا فعله بدورنا ..

*****

كثيراً ما دار هذا الحوار البسيط و الخطير بيننا أو بين الناس من حولنا في تقييمنا لآخرين من معارفنا افترضنا أنهم سيئون فصبغنا فترة توهان مؤقتة من حياتهم بلون قاتم دائم و أبدي من الخطيئة و الضياع ، و حكمنا عليهم تبعاً لها بالاحتقار و النبذ فقرّرنا بجرأة و ثقة ليست من حقنا أن الله

تعالى بنفسه تخلى عنهم للأبد فبات ينتظرهم مصير نهائي محتوم في جهنم .. و من رحم هذا الحوار البسيط تولد مغالطتنا الثانية (**إكليل الورد**) و سؤالها الجوهري المقترن بها :

((هل حقًا الله يُخرج الكافرين أو غير المتدينين من دائرة اهتمامه و رحمته فيتركهم يهيمون في غياهب الظلمات الفكرية التي يعيشونها حتى ينتهي بهم المطاف إلى جهنم الدنيا و الآخرة ؟))

و الجواب المبسط الوجيز عن هذا السؤال هو :

((الله تعالى كإكليل الورد تماماً تراه تارةً في الأعياد و المناسبات السعيدة مبتسماً مع أصحابها و مباركاً لهم احتفالاتهم، لكنك تراه أيضاً في الأتراح و فوق القبور مواسياً أصحابها و شاداً أزرهم كي يعودوا إلى الحياة الطبيعية ، فالله كذلك موجود إلى جانب كل من المؤمن فيشجعه و يثيبه ،و الكافر فيعلمه دروس الحياة

و ينتشله من الظلام الذي يمشي فيه إلى الصراط المستقيم مجدداً ، فينشر الله بذلك عطره الزكي على جانبي درب الحياة))

و سنتطرق خلال السطور القليلة التالية إلى تفسير هذا الجواب بدقة أكثر من خلال فلسفة عميقة في الحياة تشرح غاية الله من خلق البشر فيها و هي فلسفة (**لقاح الظلام**).

ما هي هذه الفلسفة الغريبة ؟

سنتعرف أكثر عليها عبر شرح مبدئها أولاً ثم التطرق إلى بضعة أمثلة عميقة توضحها و تعززها :

◈ مبدأ فلسفة لقاح الظلام :

((الله يريدنا في هذه الحياة أن نجرب و نخطئ بشكل مقصود و ضروري كي نتعلم من أخطائنا في الحياة الدنيا و بذلك نتجنب الوقوع في أخطاء أكبر منها في الحياة الآخرة تفسد متعتها و بهجتها فتحيلها إلى جحيم مناقض لطبيعتها ، **تماماً كمبدأ اللقاح الذي يُعطى فيه الإنسان كمية صغيرة من العامل الممرض لتولّد له مناعة دائمة ضد الكميات الكبيرة منه لاحقًا أو ما يمكن تسميته بالنسبة لله { لقاح الظلام }** ، أي ترك الإنسان يعيش لفترة قصيرة في ظلام الخطايا كي يعلم يقيناً أنها بلا فائدة ترجى على المدى البعيد و بأن عواقبها كارثية تورث الإنسان الشقاء و البؤس ، ليتعلم الدرس جيداً و عصارة العبرة منها فيحصل على مناعة دائمة تقيه من الانجرار لأخطاء أكبر منها لاحقاً في الدنيا أو الآخرة تدمر حياته و سعادته إلى الأبد أو تجهز عليها من الأساس و ترسل به إلى العدم))

◈ **الأمثلة الموضحة الداعمة** : الحياة من حولنا تعج بالأمثلة العميقة التي تدعم هذه الفلسفة ، و نذكر منها ثلاثة فقط على سبيل المثال لا الحصر .. و هي أمثلة بسيطة في ظاهرها لكنها معبرة للغاية في جوهرها :

❁ **المثال الأول** : **تلميذ المدرسة** ، فأغلبنا مرّ بهذه التجربة من قبل خلال دراسته المدرسية أو الجامعية و استنتج أنه من الخير له أن يخطئ خلال دراسته أثناء العام لأن ذلك بلا عواقب نهائية لا تمحى ، فذلك سيجنبه أن يخطئ في الامتحان النهائي الذي سيثبّت علامته بشكل حاسم غير قابل للعكس

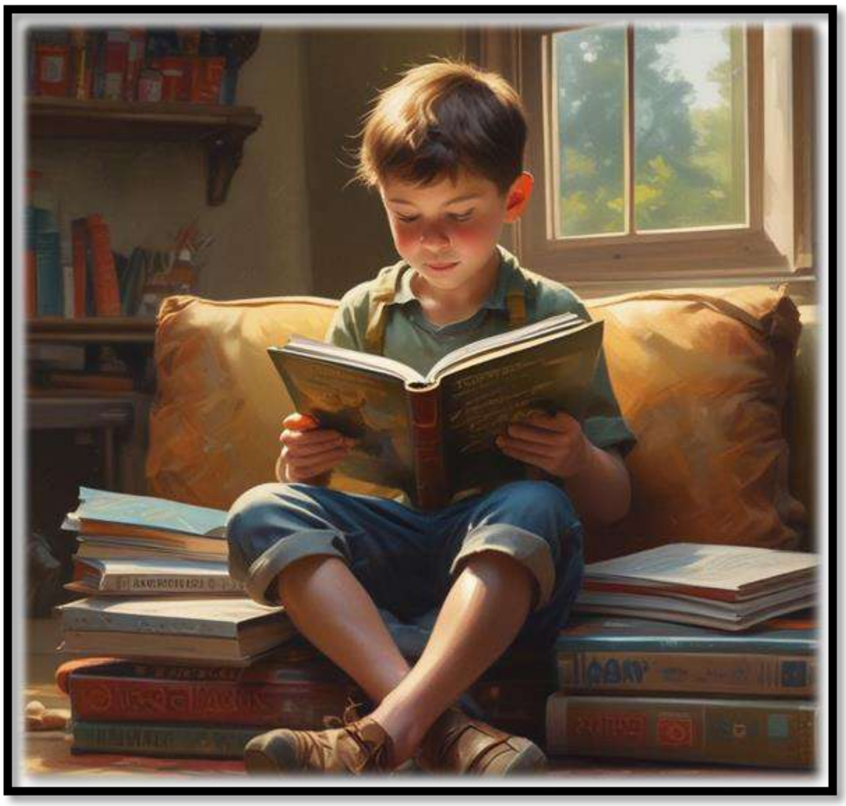

❁ **المثال الثاني** : **الطفل** الذي لا يقع و يتأذى فيدمى و يتألم لا يفهم تماماً معنى الخطر ، عواقبه الوخيمة و الألم المصاحب له الذي يفسد حياته و سعادته، لذا فأذية بسيطة قد تصيبه ستجعله ينتبه لاحقاً إلى تجنب القيام بالأعمال الخطرة الأكبر أو سيارات الطرقات أو اللعب بالنار أو الكهرباء و غيرها من مسببات الأذى ، فبضع قطرات من الدماء و درجة

بسيطة من الألم ستنقذه من الأذى الهائل و ربما الموت نفسه في المرة القادمة ..

❁ **المثال الثالث** : و ينطوي على المثل الشعبي الشهير :

((**لن تعرف خيره حتى تجرّب غيره**))

كذلك الإنسان الضال في الحياة و العاصي لتوجيهات الخالق فيتجاهلها و يتجاهل وجوده من الأساس سيقع في الكوارث الوخيمة الحتمية لاحقاً و التي ستجعله يتعلم تماماً خير الله و بركته بالمقارنة مع شر الحياة بدونه .. فيعود إليه نادماً مقراً بذنوبه و مؤمناً بحكمة خالقه ، إبداع تدبيره و خير نصائحه و توجيهاته ..

و هكذا نرى من فلسفة (**لقاح الظلام**) والأمثلة الداعمة لها أنّ الله يتعمد في مواقف كثيرة دفع الإنسان إلى طريق الظلام المبسّط عمداً كي يمنحه اللقاح الدائم منه في بقية حياته سواء في الدنيا أم الآخرة .. و لذلك بالضبط فهو موجود إلى جوار الإنسان التائه في ظلمات الحياة لينتشله منها بعد تعلم الدرس المفيد المخطط له مسبقاً، تماماً كما نجد الله عند الإنسان الصالح فيثيبه و يشجعه .. أي أن الخالق جل جلاله كإكليل الورد الذي نجده في الأعراس من جهة و فوق القبور من جهة أخرى فهو ينشر عطره في الجهتين (**النور و الظلام**) و لغايات مختلفة في كل منهما..

و في حديث منسوب للرسول **محمد** ما يعزز هذه الفلسفة :

((**عندما سأل موسى الله تعالى** : **يا ربّ أين أجدك إن احتجتك** ؟ **فأجابه الله** : **أنا عند المنكسرة قلوبهم يا موسى**))

فالإنسان الصالح ليس بحاجة ملحّة لوجود الله بجانبه فهو يمشي سلفاً في طريق ربه مستدلاً بنوره ، أما الإنسان التائه في طرقات الظلام فهو من يحتاج الله بحق ، لذا هو من يجاوره الله بحنوّ الأب على مسار ذلك الطريق حتى ينتشله منه في النهاية ليخرج من عتمة نفق الضياع إلى نور الله مجدداً فتنتصر فلسفة لقاح الظلام مع إنسان جديد بات مهيّئاً بدوره لدخول ملكوت الله و جنانه في الآخرة .. و لتصدق من جديد مقولة :

((**من رحم الظلام يولد النور**))

تماماً كالسفينة التي تملك بوصلة أو جهاز **GPS** (**الإيمان بالله**) فهي لا تحتاج ضوء المنارة لتستدل به إلى اليابسة أما السفينة التي تفتقد لذلك (**نسيان الله**) فستتوه في عتمة ليل بحر الدنيا إن لم يرشدها ضوء المنارة (**الله نفسه**) إلى اليابسة (**الطريق الصحيح مجدداً**) ، و كمثال الإنسان المعافى الذي لا يحتاج الدواء أبداً ، أما الإنسان المريض فهو

بأمسّ الحاجة إليه .. كذلك الإنسان الضال هو من يستحق العلاج الإلهي بالهداية و التوبة .. كما قال تعالى :

((**و وجدك ضالاً فهدى**))

و سنقارب فلسفة (لقاح الظلام) بشكل أعمق بتحليل جذورها من البداية عبر طرح السؤال الجوهري التالي :

((**لماذا نُفي آدم و حواء من الجنة إلى الأرض ؟ ما رمزية هذه القصة ؟ هل تم ذلك بالفعل من أجل تفاحة ؟!**))

و لكي نجيب عن هذا السؤال علينا أن نفكر بهدوء و عمق أكثر بأبعاد هذه القصة، لماذا يخاطر شخص يعيش في الجنة حرفياً و يملك كل شيء فيها بخسارة كل ذلك من أجل تفاحة نهاه الله عن قطفها فقطفها ؟!

و الجواب : لأن الإنسان بطبيعته عندما يصل إلى مرحلة الإشباع من النعم يفقد تقديره الذاتي لها و يتحول إلى كائن متمرد ، مغرور و ميال لتجربة كل ما هو جديد و مجهول حتى لو كان سيئاً بمعنى آخر :(**الإشباع و بداية الضياع**)

.. و هذا بالضبط ما فعله آدم و حواء بعد الملل من نعيم الجنة الذي يؤمن كل شيء لهما ، فقررا تجربة شيء جديد لم يجرباه من قبل ، و كانت التفاحة هي التجربة الوحيدة المتاحة و المحرمة عليهما فلم يترددا في قطافها متنازلين عن كل ما وهبهما إياه الله من نعم أخرى تعج بها الجنة ..

و هذه كارثة هائلة و مرعبة لكي نقدر حجم فداحتها علينا أن نتخيل لو أن الله خلق جميع البشر في الجنة و تركهم يعيشون فيها و كل شيء مؤمن لهم ، ما الذي كان ليحدث ؟

النتيجة الحتمية لذلك أنّ البشر سيشبعون من كل المتع المتوفرة في هذه الجنة بعد فترة من الزمن ليصلوا إلى مرحلة لن يقدروا قيمتها بعد ذلك، فيبدأ كل منهم بتجربة شيء جديد ، و في حال أنك ولدت في النور و وصلت إلى درجة الإشباع منه ما الذي يبقى لك لتجربه ؟

الظلام بالطبع ..!

لذا سيبدأ الناس بتجربة المشاعر السلبية **من سلطة** ،

تمجيد ذات ، **إقصاء الآخر و حتى محاولة الانقلاب**

على خالقهم ، التمرد عليه و محاولة السيطرة على عالمه ،و قبل أن يدرك البشر أن هذه الدرب التي سلكوها خاطئة ، لا نتيجة منها و لا تضيف شيئاً إيجابياً أو سعيداً إلى حياتهم تكون الكارثة قد وقعت و تحولت الجنة إلى جحيم حقيقي من **تبذير للنعم** ، **إسفاف فكري و تسفيه للحقائق النبيلة** ..

و هذا شبيه تماماً بالمثال التالي :

تخيل أنك تعيش في غرفة تحوي كل شيء يلزمك في الحياة ، ليس لها نوافذ، كما أنّ لها باباً وحيداً مغلقاً و خلف هذا الباب غرفة وحيدة فيها وحش ضارٍ و مفترس لكنك تجهل هذه الحقيقة .. ما الذي سيحدث بعدها ؟

ستقضي فترة من حياتك تكتشف محتويات الغرفة و طريقة استخدامها فتتمتع بها ، لكن مع مرور الوقت بتكرار نفس الاجراءات ستصاب بالضجر ، الملل و الاشباع منها ثم ستحاول تجربة شيء جديد ، لذا ستسعى إلى فتح الباب المغلق بأي طريقة حتى لو اضطررت إلى خلعه فهو الشيء الوحيد الغريب عليك في الغرفة، و عندها ما الذي سيحدث ؟

ستدخل الوحش المفترس إلى غرفتك ليقتلك !

و هذا ما لا يريده الله لنا كبشر، فالجنة هي الغرفة التي تحوي كل شيء و الجحيم هو الوحش المفترس في الغرفة المجاورة لها و يفصلنا عنه باب مغلق نهانا الله أن نفتحه ..

لكن آدم و حواء فتحاه رغم التحذير .. **و من باب الرحمة الإلهية أن هذا الباب قادهما إلى الأرض و ليس إلى الجحيم ليتعلما الدرس هنالك جيداً فيفهما حجم الخطأ الكارثي الذي ارتكباه و لنتعلم نحن من بعدهما بتجاربنا الخاصة الدرس نفسه** .. **أن نلتزم بتوجيهات خالقنا بالعمل الصالح و نتجنب المشي في طريق الظلام** ..

إذا لأجل تجنب الوصول إلى مرحلة الإشباع من نعم الجنة و صوناً لهذه الجنة ، لتلك النعم ، للنور الذي تمثله و لخلاصة الروح النبيلة و العقل السليم و حفاظاً على البشر من التوهان الحتمي الذي لا مفر منه في طريق العصيان ، التمرد و

سلوك الدرب الخطأ بعد الوصول إلى مرحلة الإشباع من النعم ، وجدت الأرض للاختبار و تلقين هذا الدرس الجوهري و المقدس :

(إن أنت أنصت إلى الله أو العقل المطلق السليم فستقدر النعم بين يديك و ستحصل على كل شيء فتعيش جنتك على الأرض، و إن أنت أنصت لغرائزك أو ما يدعى شيطانك فقدت الشعور بقيمة هذه النعم و تهت في غياهب الظلام لتخسر كل شيء و تعيش في جحيمك الخاص)

نطوي أخيراً صفحة فلسفة (لقاح الظلام) بهذين المثالين البسيطين و المعبرين بنفس الوقت عنها :

- **المثال الأول** : أن يعيش الإنسان في جو مشمس جميل يغمر فيه النور كل مكان بسعادة و أمان ، فحين لا يقدر الإنسان هذه النعمة و ذلك النور تتجمع الغيوم تدريجياً في حياته لتحجب نور الشمس عنه فيتوه في الظلام ثم تهطل الأمطار كالدموع دالة على ندم الإنسان على عدم تقديره لما كان فيه من نعم ..

و هنا تختلف غزارة الأمطار باختلاف حالة الضياع التي يعيشها الإنسان فقد تكون مجرد غيث أو قد تسبب سيولا و فيضانات .. و عندما يتعلم الإنسان الدرس جيداً تتلاشى الغيوم لتشرق الشمس من جديد فتجف الدموع، و يغمر النور حياة الإنسان مرة أخرى و قد بات يشعر بقيمته و بركته ..

- **المثال الثاني** : الزنزانة ، فالإنسان الذي لا يقدر الحياة الكريمة التي منحه إياها الله و النور الذي ولد فيه فيمشي في دروب الظلام المتنوعة قد يؤول فيه الأمر إلى السجن و ظلماته حيث يحرم من كل المتع التي كان يعيش فيها ، ليفكر بينه و بين نفسه في ما مضى و يندم على الخيار الذي اتخذه ، ثم يخرج من السجن إلى الحياة ثانية لكن

بمنظور مختلف تماما يقدس فيه النور و نعم الله التي لا تعد و لا تحصى، و هذه الحياة الدنيا و بالمقارنة مع الجنة هي زنزانتنا الكبيرة التي نعيش فيها جميعاً لنتعلم الدرس جيداً فنقدر نعم الله حق قدرها و نصونها بأشفار العيون ..

و بتلخيص كل ما سبق نجد أنّ **الله كما هو موجود إلى جانب الإنسان المؤمن ليكافئه و يشجعه ، هو موجود بضرورة أكبر إلى جانب الإنسان المُختبر في ظلام الخطيئة كي يعلمه دروس الحياة و تقدير النعم و الشكر عليها فيمنحه بذلك لقاح الظلام ، و بعدها سينتشله بنفسه كنور يولد من رحم الظلام** .. هذه كأس ستمر على جميع الناس كلقاح الأطفال الذي سيختبره كل منا في طفولته لمصلحته و حفاظاً على صحته و سلامته ..

و أختم بالأبيات الفذّة التالية للشاعر الكبير **أبو النواس** :

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرةً

فقد علمت بأنّ عفوك أعظمُ

إن كان لا يرجوك إلى محسنٌ

فبمن يلوذ و يستجير المجرمُ

أدعوك ربي كما أمرت تضرّعاً

فإذا رددت يَدي فمن ذا يرحمُ

*****

في ختام مقاربتنا لمغالطة (**إكليل الورد**) .. من المنطقي بعد الآن ألا نقول :

= فلان سيء ترك الله فتركه ..

بل أن نقول :

= فلان يمشي في طريق الظلام كاختبار و درس له مررنا به من قبل أو سنمر به لاحقاً ككأس على جميع الناس لأنّه :

(جميع بني آدم خطاؤون و خير الخطائين التوابون) و الله لن يتخلى عنه في هذه المرحلة الحرجة من حياته بل سينتشله بنفسه منها متى ما تعلم الدرس و تلقى لقاح الظلام .. فهو إنسان مريض روحياً و بحاجة لله كعلاج أكثر من الإنسان المؤمن ..

على كل منا أن يكون صورة للإله على الأرض .. إكليل ورد ينشر عطره في نصفي الحياة **(النور و الظلام)**

فنشجع من يقوم بالعمل الصالح و نشد على يده ، و نحاور من يمشي في الظلام و ننصحه شارحين له عواقب السير في طريق الخطيئة ، مع ما ينتظره من خير كبير يعبد طرقات النور الإلهي علنا نهديه بسرعة و نختصر عليه طريق الظلمات .. فليس من الخير أو الإيمان أن ننبذه و نقاطعه تماماً فنحكم عليه بأنه هلك بشكل نهائي و لا أمل من توبته

أو عودته إلى جادة الصواب فذلك يخالف جوهر فلسفة :

(لقاح الظلام) الإلهية .. **فالتائهون بابتعادهم عن الله هم أكثر الناس انكساراً لقلوبهم و عندهم نجد الله بحقّ ليهديهم** ..

مخالطة حوالينا و لا علينا

(الثور الأبيض)

= هل سمعت يا سرحان بظهور وباء جديد في الصين يدعى (كورونا) ، يقال أنه أشد فتكاً مما سبقه .. ؟!

= حوالينا و لا علينا .. ما الذي يهمني بالموضوع يا صالح ، الصين في أقصى شرق الأرض و نحن هنا في المغرب العربي ، تكفينا همومنا الخاصة ..

بعد مضي عام ..

= تعازيّ الحارة لك صديقي سرحان بوفاة والديك بفيروس كورونا ..

= أشكرك صالح ، لم أكن أتوقع حتى في خيالي أو أحلامي أن يصل الفيروس إلينا لينهي حياة أعز شخصين عليّ .. لقد كان حوالينا منذ عام و لكنه اليوم علينا و بأبشع صورة !! ..

*****

من رحم هذا الحوار الوجيز بين صديقين مغربيين تولد مغالطتنا الجديدة و التي تحمل عنواناً مشتقاً من الحوار :

(**حوالينا و لا علينا**) .. و المشتقة بدورها من حديث

منسوب للرسول **محمد** يقول فيه :

((**اللهم حوالينا ولا علينا** ، **اللهم على الآكام**

و الظراب و بطون الأودية ومنابت الشجر))

هذا الحديث الذي قاله الرسول من باب الدعاء لله أن يجعل المطر الغزير ينهمر على الأشجار و الوديان لا على الناس و بيوتهم فيفسدها ، تحور استعماله للأسف مع مرور الزمن إلى مثل شعبي يقصد به أن يلحق الضرر بغيرنا دون أن يطرق أبوابنا .. كما هو الحال في الحوار السابق بين سرحان وصالح حيث لم يبدِ سرحان أي مشاعر مواساة أو انزعاج من انتشار فيروس كورونا بعيداً عنه في الصين ، لينتشر الفيروس بعدها عبر العالم و يصل بلده المغرب و يفتك بوالديه .. و هنا يحط سؤال مغالطتنا الهام للغاية رحاله في واحة المغالطات :

((**هل حقاً الانقسام الجغرافي بوجود حدود بين الدول**

يعني انفصال مآسي هذه الدول عن بعضها ، **فتبقى**

الكوارث حبيسة تلك الحدود ؟ بحيث يمكن لكل بلد أن يقول حوالينا لا علينا أو اللهم أسألك نفسي ، أم أنّ هنالك ارتباط عميق و وثيق يتخطى حدود الدول و يربطها ببعضها بشكل حتمي لا مهرب منه ؟))

و جوابنا البسيط و الوجيز كالعادة على هذا السؤال هو :

((**ربما كان البشر فرقاء درب بسبب الحدود بين الدول ، لكنهم بلا أدنى شك رفقاء مصير مشترك**))

و سنقوم خلال السطور التالية بتحليل هذا الجواب بشكل أعمق عبر طرح قصة شهيرة بسيطة و معبرة للغاية ثم ضرب مجموعة أمثال تدعمها و تعزّز مغزاها و عبرتها ..

❶ **القصة و العبرة** : و هي قصة **الثور الأبيض** الكلاسيكية التي تروي حكاية ثلاث ثيران (أبيض و أحمر و أسود) يعيشون إلى جوار أسد في أحد السهول ، فلما جاع الأسد في أحد أيام القحط و لم يجد طعاماً قرر اصطياد أحد هؤلاء الثيران ، لكنه كان يدرك بأنّهم مجتمعين أقوى منه بكثير، لذا قرر الانفراد بكل منهم على حدة ، فاقترب من الثورين الأسود و الأحمر و نصحهما بوجوب التخلص من

الثور الأبيض بسبب لونه الفاضح الذي سيجلب الصيادين البشر إلى السهل و يفتك بالجميع ، فوافقا على الفور و شجعاه على اصطياده ففعل ، بعدها بأيام جاع الأسد مجدداً فاقترب من الثور الاسود و أخبره بأن الثور الأحمر طلب إليه التخلص منه كي ينفرد بزعامة السهل بمفرده فأخذ الشك ينهش الثور الأحمر يوماً بعد يوم حتى أتعبه فرجا الأسد أن يدافع عنه ففعل و قتل الثور الأحمر .. مرت أيام أخرى و جاع الأسد مرة أخرى بسبب القحط فاقترب من الثور الأسود ليصطاده بسهوله بعد أن أصبح وحيداً ، هنا صاح الثور بصوتٍ عالٍ يقطّر ندماً و قد فهم الحكاية كلها :

(لقد قُتلت يوم قُتل الثور الأبيض)

العبرة من هذه القصة ، أنّ كلاً من الثورين الأحمر و الأسود قال حوالينا و لا علينا فلم يكترث لمصير رفاقه في السهل حتى لحقه في النهاية المصير نفسه .. و بالعودة إلى الحوار بين سرحان وصالح يمكننا القول : (لقد قُتل والدا سرحان يوم فتك فيروس كورونا بشعب الصين قبل عام)

❷ **الأمثلة** : و هي على سبيل المثال لا الحصر بالطبع و تدعم العبرة من قصة الثيران و الأسد لتوضحها أكثر و سنوزعها على ثلاثة محاور :

❁ **المحور الأول** : **الأمثلة الرمزية** ، و هي ثلاثة :

- **مثال الجسد البشري** ، فإن أصيبت أي منطقة و لو صغيرة من جسم الإنسان بالإنتان و لم تعالج من قبل كامل الجسد فسينتشر الإنتان إلى كامل الجسد و يفتك به ليموت الإنسان ..
- **مثال الورقة المحترقة** ، فإن قمنا بإشعال طرف ورقة كبيرة بالنار ، فإن هذه النار ستنتشر إلى كامل أطراف الورقة الأخرى عاجلاً أم آجلاً إن لم تُطفأ النيران بطريقة ما .. و هذا ما عبّر عنه **المثل الباسكي** :

((**انتبه إلى منزل جارك فإن احترق ،احترق منزلك بعده**))

- **مثال هرم أوراق اللعب** ، فهو هرم هش مكون من عدة

أوراق لعب متوازنة بحيث تعتبر كل منها نفسها مستقلة و في مأمن عمّا يجري مع رفيقاتها ، لكن في الحقيقة نزع أي ورقة منها من هذا الهرم سيتسبب في انهيار الهرم بكامله ، فمصير الأوراق مرتبط ببعضها ..

فلا تغتر بتوازن ورقة اللعب التي تمثلها فرداً أو جماعة و تمتدح دورك المحوري في توازن الهرم البشري ، بل انتبه لسلامة الأوراق الأخرى كافة فدورها لا يقل أهمية عن دورك و لن يغنيك توازنك إن اختل توازن أيٍّ منها ..

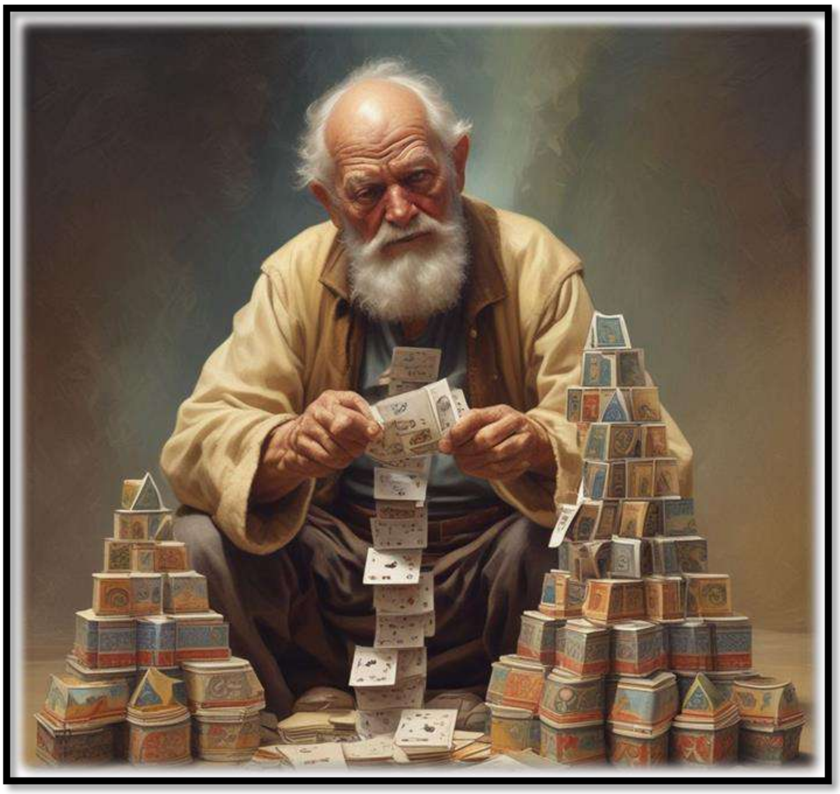

۞ **المحور الثاني** : **الأمثلة الطبيعية** ، و هي ثلاثة أيضاً :

● **الزلزال** ، فالصفائح التكتونية في باطن الأرض متلاصقة ببعضها ، فإن تحركت إحداها في أقصى الشرق ستنتشر

الحركة عبر البقية كأحجار الدومينو نحو أقصى الغرب .. فلا عجب أن يتبع وقوع زلزال في اليابان حدوث زلزال آخر لاحقاً في تركيا ثم المغرب أو حتى تشيلي .. فهل يقول سكان تشيلي إن حدث زلزال في اليابان (حوالينا و لا علينا) ؟! و الزلزال القادم سيحط رحاله عندهم و لو بعد حين !

● **البراكين** ، و كمثال نذكر بركان أيسلندا العظيم عام

٥٣٦ م الذي يصنفه الباحثون كأسوأ عام في البشرية ، فالرماد البركاني الناتج عن البركان أحدث سحابة رماد هائلة حجبت الشمس عن قسم كبير من الكرة الأرضية متسببةً في انخفاض شديد لدرجات الحرارة و ما تبعه من موت البشر و الحيوانات مع تلف المحاصيل الزراعية الذي أجهز على أعداد أكبر لاحقاً و من ثم انتشار الطاعون الذي فتك بكثير ممن تبقى .. فهل يقول الناس في ميانمار مثلاً ، مالنا و بركان أيسلندا إنه يبعد عنا آلاف الكيلومترات ..!!

● **انقراض الحيوانات** ، حيث أثبتت الدراسات العلمية أن انقراض أي صنف من الحيوانات سيتبعه تأثير هائل يطال الأرض كافة ، كما سيحدث إن انقرضت القردة أو السناجب التي تلعب الدور الأهم في نقل البذور من الثمار إلى الأرض و نمو الأشجار الجديدة ، فعندها ستتقلص مساحات الغابات بشكل خطير ينكمش معه منسوب الأكسجين في الهواء في كل مكان من العالم و نحن نعرف جميعاً أي دور هام يلعبه غاز الحياة هذا بالنسبة للبشر و الحيوانات .. و ضرر نقصانه لن يقتصر على الدول التي انقرضت فيها تلك الحيوانات ..

❁ **المحور الثالث** : **الأمثلة البشرية** ، و هي ثلاثة بدورها :

● **جارك السكران** ، لنفترض أن جارك في الشقة التي فوقك مباشرةً أدمن الكحول وبات مغيب الوعي في كثير من الأوقات ، فمن المحتمل جداً أن ينسى غاز الموقد مفتوحاً أو أدوات التدفئة تعمل بشكل دائم مما يفاقم خطر حدوث انفجارات أو حرائق في شقته ، فهل سيشفع لك التزامك الحرص في التعامل مع الغاز و الأدوات الكهربائية و غيرها في شقتك من تجنب الضرر الناجم عن الانفجار أو الحريق في شقة جارك ؟، فهنا يا عزيزي ما هو حولك هو أيضاً عليك حرفياً .. و مصير البناء السكني واحد .. لذا يقول المثل الشعبي : **إن كان جارك بخير فأنت بخير** .. و ما دول العالم سوى مجموعة شقق في بناء سكني واحد و هو الأرض

يجمعها مصير واحد مشترك .. لذا نجد الرسول **محمد** قد أكد على أهمية الجار تماماً كاهتمامك بنفسك فقال :

((**مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت انه سيورثه**))

● ثقب الأوزون ، فأغلبنا يعلم بأنّ هذا الثقب في الغلاف الجوي يتسع باستمرار بسبب غازات المصانع المنتشرة بشكل خاص في الدول الصناعية المتطورة ، لكن ضرره لن يقتصر على هذه الدول فحسب ، بل أن عواقبه من ارتفاع درجات الحرارة ستطال جميع دول العالم و الأكثر تضرراً منها هي الدول الصحراوية التي بغالبيتها لا تساهم في اتساع هذا الثقب إلا بالشيء اليسير .. كما أنّ ذوبان جليد القطب سيتسبب في ارتفاع منسوب البحار و المحيطات و غرق مدن أو حتى دول كاملة لا علاقة قوية لها بأزمة هذا الثقب ..

● الحروب ، فعندما تحتل دولة ما دولة مجاورة لك فعليك أن تدق جرس الإنذار فمن المحتمل أن تكون أنت التالي ، و في التاريخ من العبر ما لا تتسع له الموسوعات لذكرها و ما أكثر العبر و ما أقل الاعتبار ، كذلك استخدام الأسلحة النووية لن يقتصر ضرره على المكان الهدف ، فالرياح ستنشر الغبار الذري بعيداً إلى دول أخرى لا علاقة لها بالحرب و جميعنا يعلم أيّ ضرر بالغ يسببه هذا الإشعاع ..

بالمحصلة نستنبط من قصة الثور الأبيض ، و الأمثلة التسعة الداعمة لها أن عبارة (حوالينا و لا علينا) كما تستخدم حالياً مجرد أضغاث أحلام ، و أن أفضل تشبيه للأرض بأنها جسد

واحد صحته من صحة كل جزء منه مهما كان صغيراً .. فلا تستهن و تستخف بمعاناة و مآسي شعوب دول بعيدة عنك ، فلا تدري بأي طريقة ستنتقل عواقبها و آثارها إلى دولتك لتشرب من نفس الكأس المر بدورك ..

*****

في ختام مقاربتنا للمغالطة الجديدة (**حوالينا و لا علينا**) من المنطقي بعد الآن ألا نقول :

= لا أكترث كفرد أو كدولة لما يجري مع غيري ، فلدي من المشاكل و الهموم ما يكفيني ..

بل أن نقول :

= نحن أبناء إنسانية واحدة و همومنا مشتركة ، فمأساة أي فرد أو شعب هي مأساتي ، و عليّ المساهمة في حلها بما تيسره لي إمكانياتي .. لذا انصح جارك السكران على سبيل المثال أن يقلع عن الكحول قبل أن ينفجر الغاز في شقته و يأخذ معها شقتك و البناء السكني برمته ..

نحن **فرقاء درب** على هذه الأرض بسبب البعد الجغرافي و حدود الدول ، لكننا **رفقاء مصير** بشكل مؤكد كما حلّلنا في الصفحات السابقة ، **لوحة فنية جميلة و معقدة مرسومة**

على ورقة كبيرة هي الكرة الأرضية فإن تلف أي جزء منها تشوهت الصورة برمتها ، و إن احترق أي طرف منها ستلتهم النار كامل الورقة عاجلاً أم آجلاً .. فاسعَ لكي يكون جارك بخير حتى تبقى أنت بنفسك بخير و اجعل شعارك الجديد : (**ما يجري حوالينا اليوم سيكون علينا في الغد**) ..

المآسي البشرية وباء لا يعترف بحدود الدول و يُعدي بمليون طريقة ، لذا على العالم أن يعالج بؤرة المأساة الأولية بمليون طريقة أخرى قبل أن تنتشر إلى بقية بقاع الأرض ..

مغالطة الشيوع

(الشجاعة تغلب الكثرة)

= أي خيار اخترت على إجابة السؤال **44** ؟

= الخيار **E**

= للأسف جوابك خاطئ بشكل مؤكد ..

= لكنني متأكد من صحته !

= جميع طلاب الدفعة أجابوا بالخيار **B** .. هل الجميع على خطأ و أنت على صواب .. فكر بها قليلاً يا صديقي ..

= لا يهمني كم طالباً أجاب على السؤال بطريقةٍ ما بل يهمني ما هو الجواب في المرجع .. إنه سؤال من خارج الكتاب و لكن إجابته في المرجع الفلاني الذي اطلعت عليه ..

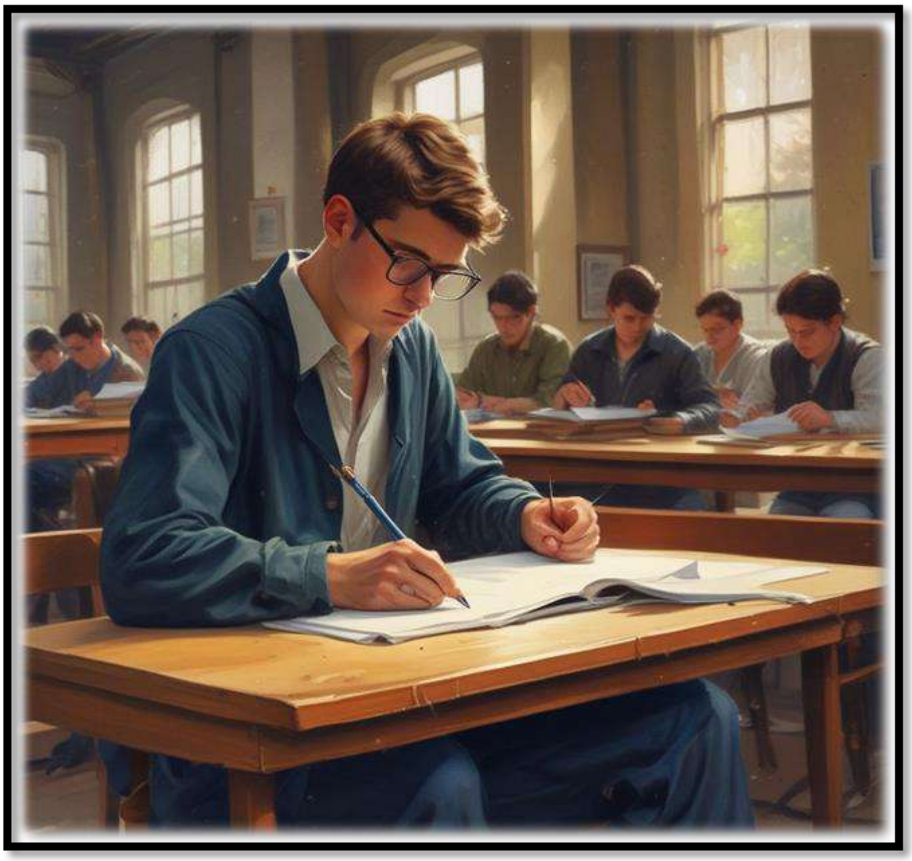

*****

على الأرجح مرّ كثير منا و لو لمرة واحدة على الأقلّ في حياته بمثل هذه التجربة و هذا الحوار أو ما كان على شاكلته عندما يصطدم رأي فرد وحيد برأي الجماعة فتعلن الجماعة بطلان رأيه بحجة **الشيوع و الإجماع** و الذي هو صلب مغالطتنا الأخيرة في هذا الكتاب و نستهلها كالعادة بسؤالها الجوهري المشتق منها :

((**هل رأي الأغلبية صائب دائماً بحجة الإجماع عليه** ؟

و هل يمكن لرأي فردي يتيم أن يتغلب على رأي

الجماعة و يثبت صحته ؟))

سنجيب على هذا السؤال بشكل مبدئي مبسّط و وجيز مشتق من جواب الطالب المجتهد في الحوار الأول للمغالطة :

((**بالطبع الأغلبية ليست على حق دوماً** ، **فكثير من القضايا في الحياة يكون جوابها خارج كتاب** { **هذا ما وجدنا عليه آباءنا** } **و نجده فقط في المرجع العلمي الشامل الذي يطلع عليه قلّة من البشر المجتهدين و الباحثين عن الحقيقة المجرّدة عبر الثقافة و التفكير**

و المحاكمة المنطقية))

و سنقارب هذه الإجابة أكثر من منظور كلٍّ من الجماعة الغالبة و الفرد الوحيد :

❁ **زاوية الجماعة** : و هي غالباً ما تسلك سياسة القطيع

الفكري ، فترث معتقداتها عن الآباء و الأجداد كما هي دون تمحيص أو تدقيق و تعتبرها من المسلمات لذا تعتمد عليها في حياتها اليومي بتكرار يعزز صحتها افتراضياً في عقولهم

و الأخطر من ذلك أنّ هذه المسلمات تُعتبر في كثير من الأحيان معتقدات مقدسة لا يجوز المساس بها من قبل أي فرد لأن إثبات بطلانها يزلزل أركان العقيدة الجماعية و يقلقل شعور الأمان في نفوسها فيشعر كل فرد منها أنه خُدع لعقود هو و أجداده و بأنّ عمره ضاع في اتباع سراب و أوهام ، الأمر الذي يعد من أكثر الأمور التي تدمر نفسية الإنسان و تشعره بعدم القيمة هو و معتقداته و سنوات حياته الطويلة .. فهذا بالضبط ما يفسر تماماً لماذا تتعامل الجماعة مع الفرد الذي ينقلب على نظامها الفكري و معتقداتها بشراسة و وحشية تصل لمرحلة التعذيب و القتل ، ليس من باب إسكاته فحسب بل أيضاً لجعله عبرة للآخرين كي لا يتجرؤوا على سلوك ذات النهج التشكيكي

۞ زاوية الفرد الباحث عن الحقيقة المجرّدة :

و يمثلها قلة من البشر في كل زمان ، مكان و مجتمع ، ممن قرروا استخدام العقل في تفنيد و تمحيص المعتقدات السائدة المسلّم بها مع وضعها في محرق الشك ثم الاستدلال بالبراهين العلمية المنطقية على صحتها أو بطلانها و طرح فرضيات جديدة صائبة بديلة عن المغلوطة منها تتماشى مع العقل و المنطق .. للأسف رغم توهّج عقول هؤلاء البشر و ندرتهم التي تجعل منهم أحجاراً كريمة نفيسة في شاطئ من الحصى ، و رغم إثبات آرائهم بالعقل و الأدلة العلمية فإنّ كل ذلك لا يشفع لهم في أغلب الحالات، فلا يغير من رأي

الجماعة المتوارث .. و هذا ما أشار إليه الفيلسوف الألماني **فريدريك نيتشه** بقوله :

((**الرعاع اعتنقوا معتقداتهم من دون براهين ، فكيف يمكنك أن تقنعهم بزيفها من خلال البراهين** ؟!))

بل على العكس تثور عليهم هذه الجماعة بأكثر الطرق همجية لتكميم أفواههم و مصادرة أفكارهم في محاولة منها لطمس الحقائق و إبقاء الوضع على ما هو عليه .. فتكون نهاية هذه اللآلئ الفكرية مأساوية في أغلب الحالات ..

لكن ثمة نافذة نور ضيقة في هذا الجدار الذي تبنيه الجماعة في وجه الأفكار الجديدة و هي عجز الجماعة عن محو الفكرة من الوجود كونها شيء غير مادي أو ملموس ، فنرى الأفكار تستمر بالانتشار بين الناس كوباء إيجابي حتى بعد قتل أصحابها و لأجيال عديدة حتى تجد الآذان الصاغية المناسبة في مكان آخر أو زمن مختلف أو جماعة ثانية فتفرض نفسها بقوة و تتكاثر و تتسلق كالنباتات على ذلك الجدار لتطمس معتقدات الماضي الباطلة التي بني منها و تستبدلها بحقائق علمية مثبتة جديدة تتوارثها الأجيال اللاحقة فينتصر أصحابها بعد زمن طويل من وفاتهم ..
فمن ينتصر دوماً في معارك الحياة و يعمّر و يستمر هو و

فقط هو :

(**العقل و العلم و المنطق**) ..

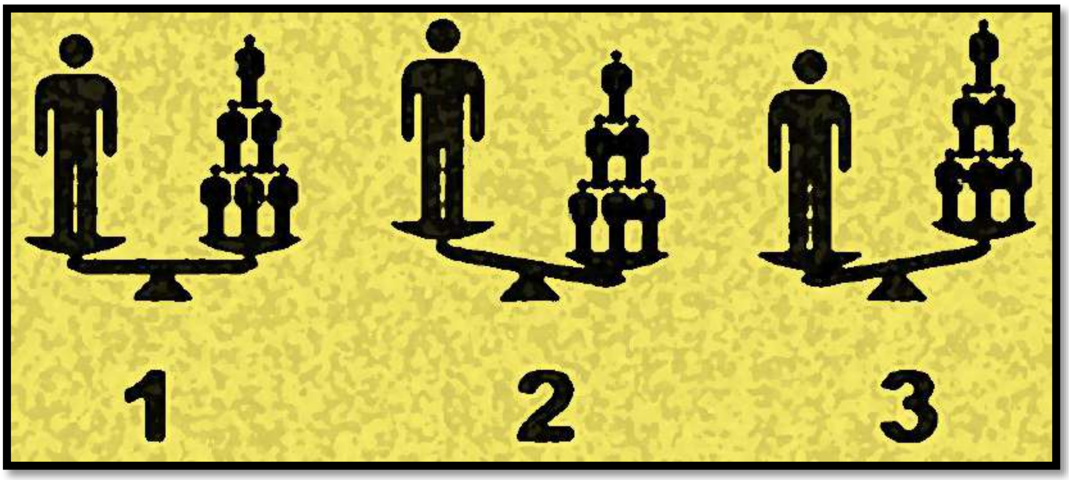

و بتبسيط شديد لكنه عميق لكل ما سبق يمكننا القول كما ذكرنا آنفاً : فيما يتعلق بالمعتقدات السائدة بين الناس هنالك كتابان يتصارعان عبر صفحات الزمن المتعاقبة :

■ **كتاب** (**هذا ما وجدنا عليه آباءنا**) : و هو يحتوي على تفسيرات الأجداد البدائية للظواهر و القضايا الحياتية من زاويتهم الضيقة و إمكانياتهم العقلية أو العلمية المحدودة و المكبلة بقيود المصلحة الشخصية و المنفعة الذاتية ، تلك التفسيرات تنتقل بشكل متوارث كمسلمات غير قابلة للشك ..

■ **كتاب** (**المرجع العلمي الشامل**) : و هو يحتوي على التفسيرات الصحيحة و الدقيقة المثبتة بالبراهين العلمية ، و يتجرأ فقط أفراد قليلون في كل زمان و مكان على الرجوع إليه و الاستدلال بنهجه .. و سبيل ذلك يكون

ببساطة بالثقافة و المحاكمة ، فذلك يجعل الإنسان يسأل ثم يشك ثم يبحث عن الحقيقة و أخيراً يثبتها بالدليل و بعدها تأتي المرحلة الأصعب و هي مواجهة المجتمع بالحقيقة الجديدة و إقناعه بها كتمرّد على كل شيء خاطئ سائد و متوارث ، هذا بالضبط ما لخصه الأديب الكبير **إحسان عبد القدوس** بقوله :

((**الثقافة تمثل نوعاً من الإرادة .. إرادة التمرّد على كل ما هو باطل**))

و لنتذكر جيداً أنه في فترة ما من التاريخ كانت هنالك قناعة راسخة لا تتزعزع عند الناس بأنّ الأرض مسطّحة و أنّ النجوم هي مقر الآلهة أو هي الآلهة نفسها و أنّ اختلاجات مريض الصرع أو أورام الدماغ سببها حلول الشيطان في جسد المصاب بها مما يقتضي علاجها بحرقه حيّاً و غيرها كثير من المعتقدات التي أثبت العلم بالبرهان أنها مغلوطة و مثيرة للسخرية من جهة و للألم من جهات أخرى كثيرة إذ ذهب ضحية تنفيذها كما معارضتها كثيرون من الناس أو المفكرين .. فهل كون هذه المعتقدات شائعة و عامة بين الناس ساعتها يمنحها صفة الشرعية و الصواب !

بالطبع لا .. و ما أكثر الأراضي المسطحة في زمننا الراهن التي يقتنع بها غالبية الناس دون تفكير ..

و التاريخ يعجّ بالقصص و الأمثلة عن أفراد عظماء

مذهلين فكروا خارج الصندوق فشككوا بالمسلمات و طرحوا تفسيرات علمية منطقية لها فلم تثنِهم كثرة المجتمع من حولهم عن طرح آرائهم الجديدة فاضُطهدوا و منهم من قُتل في سبيل أفكاره .. في الحقيقة تحتاج هذه القصص لموسوعات كبيرة لتغطيتها ، لذا سنكتفي بذكر بعضها فقط على سبيل المثال لا الحصر :

① **المعتقدات العلمية** :

❁ **هيباتيا** : عالمة رياضيات و فلك ، قتلت على يد متعصبين دينياً بطريقة شنيعة ..

❁ **غليلو غاليلي** : عالم فلك شكك بنظرية (الأرض مركز الكون) فحبسته الكنيسة إلى أن مات في السجن

❁ **جوردانو برونو** : عالم فلك اتهمته الكنيسة بالهرطقة

فاقتيد عارياً في طرقات روما ثم أحرق حياً في ميدان النار وسطها

② المعتقدات الفكرية :

❁ **مالكوم إكس** : ناشط سياسي حقوقي أمريكي تم اغتياله بسبب دفاعه عن حقوق الأمريكيين الأفارقة

❁ **علي شريعتي** : مفكر إيراني تم اغتياله بسبب تفكيره خارج الصندوق السائد بين الناس

❁ **فرج فودة** : مفكر مصري تم اغتياله بسبب مطالبته بفصل الدين عن الدولة

③ المعتقدات الدينية :

❁ الرسول **محمد** الذي ألغى عبادة الاصنام ، التفاوت

الطبقي و تجارة العبيد التي كانت سائدة في الجاهلية فلاقى في البداية هيجاناً عُصابياً من قبل الناس من حوله بسبب تغييره لما هو سائد و متوارث ، و يحضرني هنا قول الأديب الكبير **عبد الرحمن منيف** :

((**صاحب الفكرة يجب أن يتحمل الكثير من أجل توصيل فكرته، ولنا في الأنبياء قدوة**))

۞ المفكر الديني **مارتن لوثر** الذي اعترض على استئثار الكنيسة الأوروبية بالصواب و فرضها أموراً و معتقدات ليست من صلاحيتها على الشعب

۞ الفيلسوف **سقراط** الذي شكك بآلهة الإغريق المتعددة فأجبروه على شرب السم و الموت

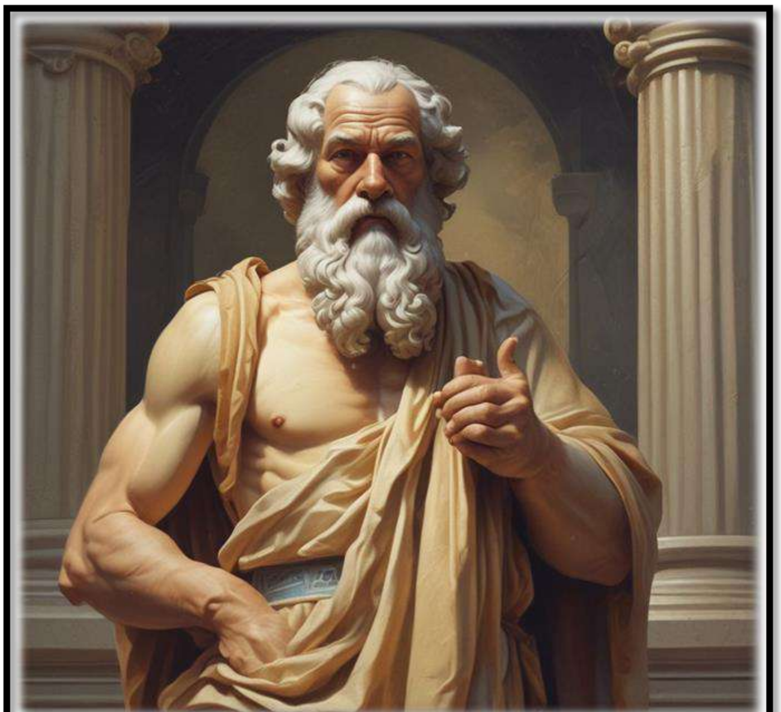

و مع سقراط الحكيم ننهي مقاربتنا لهذه المغالطة الهامة في حياتنا و مجتمعاتنا بذكر **الوصايا العشر السقراطية** التي تلخص فلسفة التمرد على السائد و الموروث مع استخدام العقل فقط للوصول إلى حقيقة أي شيء (معتقد ديني ، نظرية علمية ، مفهوم سياسي ، قضايا اجتماعية... و غيرها) :

- **شكّ في كل شيء .**
- **ابحث دائمًا عن الحقيقة.**
- **لا تتبع القطيع.**
- **تجنب الإيمان بالمسلمات.**
- **إسأل كثيراً.**
- **إقرأ كثيراً.**
- **أنقد الأفكار و لا تقدس أيّاً منها.**
- **لا تصدق رجال الدين في كل ما يقولونه.**
- **لا ترفض دوماً ما يتعارض مع منطقك وفكرك.**

❁ لا تؤذي من يختلف معك بالرأي.

و نرى كم هذه الوصايا عظيمة ، و كم هي خطرة على عشاق القطيع و التمرغ في وحل المسلمات و الموروث دون تفكير .. و نفهم من خلالها لماذا قتلوا سقراط محاولين إسكاته .. لكن مجرد قراءتنا الآن لوصاياه بعد آلاف السنين هو خير مثال على قوة الفكرة و ديمومتها كطاقة لا تفنى و تنتقل عبر الأجيال ليفرض المنطق نفسه ..

و علينا جميعاً أن ننهج سبيل سقراط و غيره من المفكرين فنفكر خارج صندوق المتعارف عليه و المتوارث كمسلمات غير قابلة للشك أو التساؤل لنصل إلى الحقيقة المجردة في جميع جوانب الحياة ..

فالخيار بأيدينا بين أن نكون أحجار كريمة على شاطئ الحياة أو مجرد حصى عادية كغيرها .. و لنتذكر أنّ

استخراج غرامات قليلة من الألماس النفيس يحتاج لاستخراج أطنان من الفحم عديم القيمة .. فالنفيس دائماً ما يكون نادراً أما الأشياء قليلة القيمة فهي شائعة في كل مكان .. و أنّ التميز في الفكر يجعلك إنساناً منبوذاً في القطيع كالألماس المشعّ وسط الفحم ، كما أبدع الشاعر العبقري **المتنبي** في وصفه:

و هكذا كنت في أهلي و في وطني

إنّ النفيس غريب حيثما كانا

فمن الأفضل للإنسان أن يكون نفيساً باتباعه الحق و الصواب و لو كانت تكلفة ذلك أن يُنبذ و يُعامل كغريب في مجتمعه و بين أهله .. متبعين فلسفة الرسول **محمد** الذي حاربه أهله قبل الآخرين عندما اتبع كلام الله الحق فقال :

((**قل الحق و لو كان مرّاً**))

و مرارة الحق تقبع بين مطرقة عدم انسجامه مع رغباتنا أو مصالح المجتمع و سندان الضرر الذي يطالنا من المجتمع بقوله و الدفاع عنه ..

و متبعين أيضاً فلسفة الإمام **علي بن أبي طالب** و قوله الحكيم :

((**لا تستوحشوا طريق الحق لقلة سالكيه**))

*****

في ختام مغالطتنا الأخيرة في هذا الكتاب (**الشيوع**) .. من الأنسب بعد الآن ألا نقول:

= إن كان الجميع على ذات المبدأ فأنا مخطئ لا محالة ..

بل أن نقول :

= الحقيقة لا تعترف بالعدد مطلقاً فهي ليست مصطلحاً كمياً بل نوعياً و لا تنطبق عليها مقولة (**الكثرة تغلب الشجاعة**) بل الحق على الدوام يغلب الكثرة ، لذا إن كان رأيي مسلحاً بالمنطق و مدعوماً بالأدلة العلمية فأنا على حق و الجميع على باطل مهما كان عددهم ..

و ألا نقول :

= أنا خائف من قول الحقيقة لأنني وحيد و ضعيف ، فهذا سيغضب المجتمع و يؤلبه علي ..

بل أن نقول :

= سأقول الحق و لو كلفني حياتي .. إذ يجب ألا أخاف من ذلك لأنّ الفكرة أقوى من ألسنة الناس أو أسلحتهم مجتمعةً ..

و في تصحيح مغالطات الحياة خير مثال عن مغالطتنا الأخيرة .. فالشائع بين الناس هو المغالطة و فهمها الخاطئ ، لذا على كل منا شرف محاولة تصويب المعنى و إظهار المغزى الدفين من المغالطة لجميع الناس مهما كثر روادها و قل زاده في طريق التصحيح الوعر ، فالفكرة بحد ذاتها أقوى سلاح عرفته البشرية ..

و من تلك الفكرة الأخيرة أدعكم مع هذه المقولة الرائعة للأديب الكبير **فيكتور هوجو** :

((أقوى شيء في الكون كله، أقوى من الجيوش، و أقوى من القوة المجتمعة للعالم بأسره، هي فكرة صحيحة آن أوان خروجها إلى النور))

الابن يلد جديه ...

محتوى الكتاب :

- مغالطة الزمن (عندما يئن عقرب الساعة)
- مغالطة الخير و الشر (الرمادي ينتصر)
- مغالطة ناقصات عقل و دين (ملكة النحل)
- مغالطة الأبناء و الآباء (الابن يلد جديه)
- مغالطة الجنس (اللهاث وراء السراب)
- مغالطة الانتماء (الجنسية كونيّ)
- مغالطة النجاح الحقيقي (السيف الألماسي)
- مغالطة المنتصر يكتب التاريخ (سنجاب الحقيقة)
- مغالطة تطور الدول (تطورك مجرد أصفار)
- مغالطة شيطنة الإنسان (داروين مخطئ !)
- مغالطة الألم و الموت (جرس الإنذار)
- مغالطة النار الإغريقية (برجك من حجارتهم)
- مغالطة لسنا وحيدين (حبة الرمل)
- مغالطة الفرقة الناجية (عليها من كل زوج)
- مغالطة الطاقة المهدورة (السماء الزائفة)
- مغالطة إكليل الورد (العطر في الجهتين)
- مغالطة حوالينا و لا علينا (الثور الأبيض)
- مغالطة الشيوع (الشجاعة تغلب الكثرة)

الابن يلد جديه ...